الإصلاح الاجتماعي

بين السنن الإلهية والقيم الأخلاقية

تأصيل وتطبيق

د. طلال بن محمد أبو النور
المشرف العام على مشروع تعظيم البلد الحرام
عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى
المدرس بالمسجد الحرام

ح جمعية مراكز الأحياء بمنطقة مكة المكرمة، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو النور، طلال محمد

الإصلاح الاجتماعي بين السنن الإلهية والقيم الأخلاقية /طلال محمد أبو النور ـ مكة المكرمة، ١٤٣٣هـ

٣٥٠ص؛ ٢٧×١٤

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٢٣٧-٠-٨

١- **الإصلاح الاجتماعي** ٢- الإسلام والمجتمع ٣. التربية أ. العنوان

ديوي ٢١٩,١ ١٤٣٣/٢٨٥٢

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٢٨٥٢

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٩٥٨٨-٩

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة لـ

جمعية مراكز الأحياء - مكة المكرمة

مشروع تعظيم البلد الحرام

مكة المكرمة - مخطط الحمراء - ص.ب: ٥٧٥٧١ -

هاتف: ١٢٥٣٩١٠١ ٠٠٩٦٦ - فاكس: ٠٠٩٦٦١٢٥٣٩٠٢٠

www.makkah.org.sa

الإصلاح الاجتماعي

بين السنن الإلهية والقيم الأخلاقية

بسم الله الرحمن الرحيم

إشراقة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى وآله وصحبه أجمعين، وبعد؛

القوانين المنظمة لحياة توضع لغايات وأهداف

فإن كل قانون يتعلق بتنظيم حياة الناس الفردية والجماعية يكون في أصل وضعه مبنيًّا على غاية يريدها واضع ذلك القانون أن تتحقق في حياة الناس المعنيين بقانونه، سواءٌ كان قانونًا دينيًا أو غيره، وبغض النظر عن القيمة المعيارية للغاية التي تراد من تطبيق ذلك القانون، وإنما هي طبيعة وضع القوانين المنظمة لحياة الناس.

مفارقة الإسلام للقوانين التي وضعها البشر

والإسلام أمثل طريق وأفضل نظام وأسمى تشريع، فالإسلام دين إلهي، لم توجده أمة، ولم يوجد نتيجة أفكار سائدة، ولم يكن نتيجة تجارب لعدد من المفكرين، ولكنه تنزيل من حكيم حميد، تجلّ تشريعاته أن لا تكون لحكمة وغاية. والله سبحانه موصوف بكمال الحكمة والعلم والخبرة فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام]، أنزله الله ليصلح عادات، ويغير تقاليد، ويبني النفوس، ويوجد الأمة الخيرة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] ، فتشريعاته ونظامه هو مراد الله من نهاية صلاح البشر، فالله سبحانه وتعالى أتمّه فلا يحتاج أن ينقص منه شيء، والله سبحانه أكمله فلا يحتاج أن يزيد فيه شيء، والله سبحانه أكمله وأتمه فرضيه ولا يسخطه أبدًا إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣]، وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ نزلت وهو واقف على صعيد عرفات[(١)]، ولم يبق النبيّ ﷺ بعهدها سوى إحدى وثمانين ليلة، ثم مات ﷺ.

بعد بعثة النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يقبل من أحد دينًا غير الإسلام

لذلك صرَّح المولى عز وجل بأنه لا يقبل غير الإسلام من أحد كائنًا من كان بعد بعثة رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥].

فمن عمل بالإسلام نجا ومن تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٣].

(١) رواه البخاريّ (٤٦٠٦)، ومسلم (٣٠١٧).

فـالمجتمع الأرقـى والأرضـى عنـد الله هـو الـذي يجعـل الإسلام نظامه وتشريعه!!

إن النـاظر إلى واقـع المسـلمين يـدرك مباشـرة البـون بـين التطبيق الأرقى على زمـن الـنبي ﷺ وحـالهم اليـوم، وإن كـان هناك معالم واضحة تدل على صـحة انتمـاء المجتمـع للإسـلام وبقاء الخير في الأمة مثل إقامة الشـعائر التعبديـة ولكـن يـدرك الجميع أن هناك جوانب قصـور، قـد تصـل إلى مرحلـة الغربـة وبخاصة في الجوانـب المجتمعيـة. إن مشـكلة المجتمـع اليـوم ليسـت في نـصّ الـدين، وليسـت في عـدم وجـود المنـهج، ولا لأجـل فقـر المـيراث الثقـافي أو عجـز وقصـور التجربـة الحضـارية التاريخيـة للأمـة المسـلمة، ولكـن الأمـر يعـود إلى أسبابٍ، منها:

أسباب ضعف التطبيق للشريعة في حياة المسلمين اليوم

- ضعف الإيمان، وأقصد به على وجه التحديد: ضعف الثقة في وحدة مصدر التلقي من الوحي لإصلاح جميع مناحي الحيـاة الفرديـة والجماعيـة، وفي ميـدان الشـعائر التعبديـة والحياة الدنيوية.

- ضعف منهج الفهم للخطاب الشرعي.

- ضعف الإفادة من الميراث الثقافي للأمّة بصورة صحيحة.

- ضـعف الإفـادة مـن التجربـة الحضـارية التاريخيـة للأمّـة المسلمة.

- ضعف المنهجية الصحيحة في توصيف الواقع، وتقويمه وَفق مراد الله.

- ضعف القدرة على معرفة العلاجات الشرعية المحددة والمناسبة لزمان ومكان المعالجة لمشكلة محددة.

- ضعف القدرة على تنزيل خطاب الوحي وعلاجاته على واقع الناس اليوم بالطريقة المناسبة والملائمة.

معرفة غايات الشارع من الأوامر والنواهي مطلب شرعي للمكلف

إن من الضروري على كل مسلم أن يدرك غايات الشارع فيما كُلِّف به على وجه الخصوص. والتكليف في الشريعة على قدر الطاقة، ومن الضروري أيضًا على العاملين لإصلاح أفراد الناس أو المجتمع بعمومه أن يدركوا غايات الشارع في عملهم ذلك، وهو ما يمكن أن نسمّيه: معرفة مراد الله سبحانه من صلاح الفرد أو المجموعة أو المجتمع أو الأمة أو الناس بعمومهم. وتتأكد الضرورة في زمننا هذا لأجل ما وصل إليه أمر التواصل البشري من تداخل الثقافات المختلفة والمتضادة في أصل الاعتقاد، مع عدم نضج في كثير من الأحيان في البناء الداخلي لأفراد المجتمع المسلم لإدراك غايات الشارع الحكيم.

لقد تجاوز التواصلُ المعارفَ المادية المتعلقة بالصناعات إلى الجوانب الإنسانية الفكرية والنفسية والثقافية، تَمثّلَ المُخرَج لدى المسلمين في طروحات متعددة يصل التعدد فيها

إلى صـورة التضـاد أحيانًـا، مـع أنهـا كلّهـا تـدَّعي الانتسـاب للوحي، وأحيانًا تخفّ صـورة المخالفـة بينـها، لكنـها تفـرض ظلالها على واقع النـاس الـذين لم تحسـن تربيتـهم في الغالـب على حسن التعامل مع الخـلاف، وحـتى مـع الخـلاف السـائغ شرعًا ناهيك عن غيره.

إن التنقلات في المواقف أحد مظاهر تلـك المشـكلة، كمـا أن الخلـط في المرجعيـة بـين الـوحي وغـيره عنـدما يصـل إلى مستوى الغايات أو الكليات متجاوزًا الوسـائل هـو مظهـر آخـر للمشكلة. ممّا يستلزم إدراك المراد الرّبـاني في نظامـه وتشـريعه وقانونـه، كتصـور علمـي تجريـدي مُـدرك بصـورة صـحيحة وواضحة، حتى يقف المسلم والمصلح علـى أرض صـلبة أولُ ثمراتها: الثبـات، ووضـوح الرؤيـة، ونقـاء اللهجـة. وحـتى لا يصل به الحال أن يكون إمّعةً، والعياذ بالله.

فهذه محاولة لبناء لبنة، لكـن يـراد لهـا أن تتصـف بتكامـل عناصر البناء، أي: تبتدئ بمعرفة مـراد الله عـزّ وجـلّ، لتنتـهي بأدبيات التطبيق والتنفيذ.

المراحل الخمس للتخطيط السليم

إن البحثّ العلميّ دلَّ علـى أنّ أيّ تخطـيط لوضـع برنـامج إصلاحي عامٍّ محتاج أن يمرّ بخمس مراحل:

الأولى: معرفة مراد الله من الناس، وهو تصور علمي يتجّـه العقل السليم بمقومات الفهم الصحيح إلى الوحي لمعرفـة هـذا

المراد، مستعينًا بعد توفيق الله بالرصيد الثقافي لعلماء الأمة عبر تاريخها المديد للوصول إلى المقصود.

الثانية: معرفة الواقع، وهي عملية توصيف صحيح لواقع المجتمع المراد التعامل معه بذلك التخطيط، ومن أهم ما ينبغي معرفته في ذلك التوصيف أمران:

الأول: معرفة الغايات الفطرية الرئيسة، ومدى حضورها في ثقافات المخاطبين، ومدى تأثيرها وفاعليتها، ونصاعة تصورها، وصحته، وهذه الغايات، هي:

- موقف الناس من التصور عن الوجود.
- موقف الناس من غاية الحياة الإنسانية.
- موقف الناس من المآل بعد هذه الحياة.

الثاني الذي ينبغي معرفته لتوصيف الواقع: معرفة الموقف من الأمور المؤثرة في بناء العقول، أبرزها: الدين، التاريخ، الحضارة الوافدة.

الثالثة: إدراك الفجوة بين الواقع ومراد الله عز وجل، لنكشف الصواب الموجود المحتاج إلى المحافظة عليه، والصواب الناقص المحتاج إلى إكمال بناء، والحقّ المفقود المحتاج إلى إعادة بناء، والخطأ المخالف المحتاج إلى معالجة.

الرابعة: مرحلة وضع خطة التغيير والإصلاح وَفق المعطيات السابقة.

الخامسة: وضع الطريقة التنفيذية لتلك الخطة، وما تحتاجه من أدبيات تضمن له المسار الصحيح، والنجاح بإذن الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة، ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يعرف الخيرات الواقعة، ومراتبها في الكتاب والسنة، فيفرّق بين أحكام الأمور الواقعة الكائنة، والتي يُراد إيقاعها في الكتاب والسنة، ليقدم ما هو أكثر خيرًا وأقلّ شرًّا على ما هو دونه، ويدفع أعظم الشرّين باحتمال أدناهما، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإن لم يعرف الواقع في الخلق والواجب في الدّين، لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يُصلح ... فالعلم بالعدل قبل فعل العدل، فإذا علم وأحبّ كان من تمامه الجهاد عليه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[الحديد: ٢٥])[(١)].

وفي هذه الدّراسة سوف تكون القضية المجتمعية محور إنزال هذه الطريقة، ولو في إحدى كلياتها.

فأسأل الله التوفيق والسداد والهدى والرشاد.

---

(١) قاعدة في المحبة (١١٩).

أولاً : الأصول الشرعية الرئيسة لمعرفة غايات الشارع من خلق الناس (مراد الله من خلق الناس).

إن جمع فكر الناس، وترتيبه، وإدراك المقاصد والغايات للأعمال التي يطالبون بها من أهمّ ما تحرص عليه الطريقة الشرعية؛ لأن هذا الدّين دين الفطرة، والإنسان مفطورٌ على أن يعمل العمل الذي يدرك الثمرة من ورائه، ويتيقن حصولها له أو غلبة الظن على أقل تقدير، وإن كان كل ما وعدت به الشريعة متيقن الوقوع إن توفرت الشروط في العامل؛ لأنه لا أحد أوفى بعهده من الله، فالوقوف على الغايات والحكم العليا المنصوص عليها في الشريعة له ثمار عظيمة، منها أنه:

ثمرة الوقوف على غايات وحكم الشريعة

* يبني القناعات لدى أتباعها والعاملين بنظامها.

* يعالج فيهم الفوضوية الفكرية.

* يجعل قصد المسلم عند العمل يوافق قصد الشارع، وهذا واجب عليه.

* يَبني لديهم المقومات الرئيسة لمعيار النجاح من عدمه في تطبيق النظام الشرعي.

* يبني لديهم محددات الطريق العملي لضمانة عدم الانحراف عن الغايات.

* يزيد الإيمان بالله، ويرسّخ العقيدة.

* يعطي المسلم مناعة كافية ضدّ الغزو العقدي والفكري، ويكون المسلم معتزًّا بدينه[1].

وكلما كانت هذه الأصول أقلّ عددًا وأكثر وضوحًا، وأكبر جمعًا للجزئيات والفرعيات وأظهر في الحِكم والثمرات، كلما كان ذلك أدعى إلى جمع الناس عليها مع تفاوت قدراتهم الإدراكية والعملية، فتكون بذلك أدعى لحفظها واستيعابها وشمولها لأعمالهم المتعددة والمتنوعة، فلا يشعر أحدٌ بالعنتِ وهذا مقصدٌ شرعيٌ رئيسٌ وضعت الشريعة مراعيةً له، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

معرفة غاية الشارع من خلق الإنسان، ومن وضع تشريعه مطلب شرعي رئيس

وإن من أعظم المقاصد التي تحكم تصرفات الإنسان، ويجب مراعاتها معرفة غاية الشارع من خلق الإنسان، وغايته من وضع نظامه وتشريعه للناس، والثمرة التي تجنى من ذلك، وبإدراكها تدرك مرادات الله سبحانه من الإنسان، وهذا ما يكون بيانه في هذا المبحث.

(١) انظر: مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، د. يوسف أحمد بدوي (١٠٣).

حكمة الخالق من خلق الناس ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً

ولمعرفة غايات الشارع الحكيم من خلق الناس نعود إلى كتاب ربنا عزّ وجلّ فنجد في القرآن العظيم إخبارَ الله سبحانه أنه خلق الإنسان لحكمة وهي أن يبتليهم، أي: يختبرهم أيهم أحسن عملاً.

عبادة الله وحده غاية الإنسان في الحياة

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] (١)، ولم يقل: (أيكم أكثر عملاً)، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، وإن حكمة الابتلاء تقتضي أن يكون هناك أمر يبتلي الله الناس به، فإذا بالقرآن يخبرنا أن الله سبحانه خلق الناس وجعل لهم غاية من خلقهم هي العبودية له سبحانه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فتبيَّن أن هذه الغاية هي محل الابتلاء لهذا الإنسان،

عبادة الله وحده هي محل ابتلاء كل الناس

---

(١) قال الشيخ الأمين الشنقيطي: (ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صرّح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملا، ولم يقل أكثر عملا، فالابتلاء في أحسن العمل كما قال تعالى في السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ...﴾ الآية، وقال في سورة المُلك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها أن يبتلى، أي: يختبر بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار) [أضواء البيان ٢/١٧١].

فعبادة الله أصبحت هي المقصود الأعلى والأساس في الشريعة الإسلامية، بل في رسالات الأنبياء كلهم(١)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]. والناس تنوَّعت مواقفهم في ذلك الأمرِ محلِّ الابتلاء بين قبول ورفض، فمقتضى العدل أن تكون هناك محاسبة، يكافأ فيها الناجح في الابتلاء، ويعاقب غير الناجح(٢)، فوجدنا في القرآن أن الله سبحانه جعل الآخرة دارًا للحساب والجزاء فمن أحسن العمل أدخله الجنة، ومن أساء العمل أدخله النار، ففي القرآن أخبرنا الله عن نفسه أنه سميع بصير ورقيب ومحصي وحفيظ، فهو سبحانه يسمع ما

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

وقال الأمين الشنقيطي: والآيات الدالة على أن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جدا، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف] إلى غير ذلك من الآيات).

(٢) قال الفخر الرازي: (واعلم أنه لما خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم، فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر، لأن الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب، وتخصيص المسيئ بالعقاب) [التفسير الكبير١٧/١٥١].

يتكلم به عباده، ويرى ما يفعلون، ويحصيه عليهم، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق].

وقال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف].

فالإنسان خلقه الله لحكمة الابتلاء والامتحان، والعبودية هي الغاية التي خلق لأجلها الإنسان وعليها الامتحان، والآخرة هي دار الجزاء على ذلك الامتحان. فهذه الأمور الثلاثة حكمةُ خلق الإنسان. فالغاية من وجود الإنسان ودار للجزاء

والحساب هي الأصول التي توضح مقاصد الخلق العليا، ولها تأثيرها الكبير في كل مسارات الشريعة، وإدراكها من الضرورة بمكان عظيم في الدّين، وهي تمثل الإطار الرئيس للإنسان حين يعمل وَفق شريعة الله عز وجل، ولبيان تأثير هذه المقاصد على مناحي الشريعة، وارتباط مسار التكليف للإنسان بها نعرضها من خلال ثلاثة أصول:

الأول: لبيان الغاية التي خلق الإنسان من أجلها؛ ما مفهومها وحدودها التطبيقية؟ ومن الذي ينقلها للناس عن الله عز وجل؟ وهل الله سبحانه هو صاحب الحقّ الأوحد في تحديد غاية وجود الإنسان؟ وما صورة المخالفة لتلك الغاية؟ وهذا كلّه تحت عنوان: **العبودية لله عزّ وجل غاية خلق الإنسان**، وفي هذا الأصل نبيّن محورَ الغاية التي خلق الله سبحانه الناس لأجلها.

والثاني: لبيان أن الإنسان خُلِقَ ليكون مَوردًا لإنجاز هذه الغاية، وإظهار العدل الإلهي والرحمة الرّبانية في إعانة الإنسان على ذلك الإنجاز بتهيئته الخِلْقِية لذلك ودعمه لقبول هذا الإنجاز في أصل الخلقة. ثم عدم الاقتصار على ذلك، وإنما كَمُل ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، وبيان أنه لحكمة الابتلاء خلقه الله قابلاً للانحراف عن فطرته تلك، وأن من الجريمة التي يرتكبها الإنسان في حقّ نفسه أن لا يعيش لهذه الغاية، وأعظم منها في الظلم عندما يتعدّى على الآخرين ليحرفهم عن

تلك الغاية. ويضع لهم غايات من عند نفسه، ومن الظلم أيضًا أن يتبع غير طريقة الوحي ليربي نفسه أو غيره لتحقيق الغاية التي خلقه الله من أجلها، وهذا كلّه تحت عنوان: **الإنسان موردٌ للتكليف الشرعي**. فنكون تحت هذا الأصل بيَّنَّا محورَ الحكمة من خلق الإنسان.

والثالث: لبيان أن للامتحان والابتلاء مجازاة عادلة، فالله سبحانه أعدل العادلين وليس من صفاته الظلم، وأن الآخرة هي دار هذا الجزاء، ولكن من رحمته أنه جعل في الدار الدنيا شيئًا من جنس المجازاة التي جعلها في الآخرة، سواء في النعيم أو العقوبة. في نظم بديع جعلناه تحت عنوان: **الآخرة دار المجازاة العادلة**، لنقرِّب فيه محورَ المجازاة بعد الابتلاء.

اعتمدت في بيان هذه الأصول على التسلسل المنطقي المُدْرَك، مقتصرًا على النصّ القرآني ما أمكن، ذاكرًا الأصول دون الفروع من المسائل، لتعطي صورة شمولية متكاملة واضحة، وزيادةً في تقريب ذلك لأهميته وضعتُ عناوينَ جانبيه للقضايا الرئيسة، بحيث يكون مجرد الاطلاع عليها يُوجِد لدى القارئ تصورًا كليًّا عن القضية.

أسأل الله سبحانه المعونة والتوفيق والتسديد.

الأصل الأول: العبودية لله عز وجل غاية خلق الإنسان.

الله الخالق

في هُدى الله عرَّفنا الله بذاته القدسية، فكان أول تعريف بذاته العليَّة أعلَمنا به: أنه الرّبّ الخالق، وأن الإنسان من مخلوقاته، قال تعالى في أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ [العلق]، وأعلمنا سبحانه أنه كرّم الإنسان على سائر مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء].

الإنسان مخلوق مكرم

الأصل في خلقه الأرض الصلاح

الإنسان خليفة في الأرض

وخلق الله سبحانه الأرضَ صالحةً لحياة الإنسان عليها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك]، وجعل الله سبحانه الإنسانَ خليفةً في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة].

الإنسان مخلوق مكلف

وحمّل الله الخالقُ الإنسانَ مسؤوليةَ الحفاظ على نفسه في جانبها المادي، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٩].

من الدِّين المشترك بين الأنبياء الحفاظ على النفس ماديًا ومعنويًا والحفاظ على صلاح الأرض

وكذا حمّله مسؤولية الحفاظ على نفسه في جانبها المعنوي، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس]، أي: أفلح من زكّى نفسه، وخاب من دساها ولم يزكها، كما حمّل الخالق الإنسان أيضًا مسؤولية الحفاظ على صلاح الأرض وتنميتها وتعميرها عمارةً راشدةً، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وحذّره من إفساد صلاحها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وأنّ النهي عن الفساد شامل للفساد الأخلاقي والاجتماعي والديني والبيئي، سواء من الفرد أو من المجموعة.

وأعْلَمه أنه سبحانه لا يحب الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾[البقرة]، ونهاه سبحانه عن اتباع المفسدين في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢﴾ [الشعراء]، وهذه الكليات هي من الدين المشترك الذي جاءت به جميع الأنبياء، فالله عز وجل قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى]، وذكر الله وصية موسى لأخيه هارون عليهما السلام، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف]، وذكر الله قول شعيب عليه السلام لقومه، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف]، لقد تكرر ذلك على لسان الأنبياء كما ذكر في القرآن الكريم.

أرض بلا فساد مقصود ربّ العباد

إنّ ذلك كلّه أعلَمنا: أنّ حفظ نظام العالم وصلاح أحواله وأحوال أهله مرادٌ لله عزّ وجلّ، وأنّ العالم الأرضي محلّ العناية من خالقه سبحانه.

الله صاحب الحقّ أن يحكم في الإنسان

وأعلمنا سبحانه في هُداه: أنّه قامت به جلّ جلاله مقومات الاستحقاق أن يأمر الإنسان، ويحدّد له النافع والضارّ، وأن تَدْخُلَ أوامرُه وتوجيهاتُه جميعَ مناحي الحياة، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف]، وأنّ هذا حقّه سبحانه بمنتهى العدل، كيف لا!!

الله مالك سبحانه

ومن مقومات التسليم للآمر ما هو موصوف به سبحانه: **أنه مالكٌ**، فالله مالك الدّنيا وما فيها، ومالك الإنسان وجوارحه وقواه، ومالكُ الزمانِ ظرفِ الأعمال، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك]، والمالك إن حكَم في مُلكه عدَلَ، وما تعدّى وظلم، وأعلن الله في القرآن التحديَ أن يدَّعي أحدٌ أنه الخالق لهذا الكون وللإنسان، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة]، وتكرر ذلك في آيات عدة.

الله عليم خبير سبحانه

وأنّه من مقوّمات التسليم لله سبحانه أنه عليم خبير، فالله سبحانه هو الأعلم بما ينفع الإنسان وما لا ينفعه، وما يصلح له وما لا يصلح، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:١٤٠].

الله حكيم سبحانه

ومن مقوّمات التسليم : أنّه سبحانه حكيم، يضع الأمور في موضعها الصحيح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾[الأنعام].

الله رؤوف رحيم

ومقومات التسليم : أنّه سبحانه رؤوف رحيم فخلق الإنسان وأراد به الخير؛ أعطاه وجاد عليه ورحمه، فالعلاقة بين الرّبِّ الخالق والإنسان المخلوق أساسُها العطاءُ والإكرام والفتح والرّحمة من الله الجواد لعبده المخلوق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ

ﭐلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]، **وأنه سبحانه غني عن عباده**، فوضع الله الشرائع لمصالحهم، لا لأنه محتاج للعباد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

فإن لم يكن الله جلّ جلاله الموصوف بصفات الكمال صاحب الحق في أن يأمر ويحكم في الإنسان فمن!!

إن معرفة الإنسان لربّه المعرفةَ التي تجعله يدرك، ثم يقبل، ويرضى بأن يكون الله هو الحكم والمعبود والمحبوب، هي أعظم ما قصده الشارع الحكيم من تعريف الناس به سبحانه(١)، فهي البداية لتوجيه سلوك الإنسان وفق مراد الله سبحانه وحكمه، وفي القرآن في مقابل ما وصف الله به نفسه

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: (وأنت إذا تدبرت القرآن، وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بأراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعزّ ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعَّال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزّه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه وليّ ولا شفيع) [الفوائد: ٧٢-٧٣].

من صفات الغنى والكمال والجلال، وصَفَ غيره بصفات الفقر والعجز والضعف، وذكر الله في القرآن صفات ضعف الإنسان، فذكر صفات ضعفٍ لا ينفك عنها أيّ إنسان منذ أن وُجِدَ إلى يومنا هذا، وإلى يوم القيامة، فالإنسان لم يخلق نفسه، بل ولا حتى كان مريدًا لوجود نفسه، ومن لم يكن قادرًا على أن يكون مريدًا لوجود نفسه، هل يُعدّ غنيًّا؟! قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، والإنسان لا يدري ماذا يكسب غدًا؟! ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموتَ، بل ولا يستطيع أن يحدد مكان موته، ومن كان كذلك، هل يُعدّ غنيًّا؟! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، والإنسان قتورٌ يهمّه مصلحة نفسه قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

فمن الأحقُّ بأن يحكم في هذا الإنسان؟! أليس الله الأحقّ بذلك !!

الله سبحانه وضع للناس نظام حياتهم

ولقد أعلمنا الله أنّه لم يتنازل عن هذا الحقّ لغيره، وأنّه سبحانه قام بهذا الحقِّ الذي له خير قيام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة].

سمى الله تنظيمه للناس هدى الله

لقد سمّى الله ما جاء عنه في تنظيم حياة الإنسان هدى الله، وما وضعه غيره في ذلك سمّاه بالأهواء والباطل، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، لقد ألزم الله الناس باتِّباع هداه، ونهاهم عن اتِّباع غير هداه، وكان ذلك بصورة صريحة واضحة في الإلزام للاتِّباع، وهي صيغة الأمر. وواضحة في لزوم الترك لغير هدى الله، وهي صيغة النهي، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام].

اتباع هدى الله أمرٌ ملزمٌ لا خيار للناس فيه

فترتَّب على هذا التأصيل:

- أنّ ما وضعه اللهُ لتنظيم حياة الإنسان هو الحقّ الذي لا مرية فيه.

- أن الله ألزم العباد اتِّباع هداه، وألزمهم ترك كل ما عداه.

- أنّ ما وضعه البشر فيما لم يأذن به الله في تنظيم حياتهم هو تعدٍّ وظلم.

- أنّ من اتبع ما وضعه الله في تنظيم حياة الإنسان، متبع لهدى الله.

ضمانة الله لعبيده

- أنّ متَّبع هدى الله أدْخَلَ نفسَه في الضمانة المُعلنة من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه]، فلا يكون ضالاً في طريقته ومنهجه، ولا يكون شقيًّا في مآله وثمرة عمله.

قال ابن عباس: (أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية) [روح المعاني ٢٧٦/١٦، وانظر: تفسير ابن كثير ١٦٨/٣].

أنّ من اتَّبع ما وضعه البشر بعيدًا عن هدى الله، أخرج نفسه من تلك الضمانة، فلا يضمن لنفسه عدم الضلال والانحراف عن الحقّ واليقين، ويصبح مُهدّدًا بالشقاء في المآل وثمرة العمل، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام]، فنجد في القرآن المتقابلات: النور والظلمة، الهدى والضلال، النعيم والعذاب، وكثيرًا ما نجد في القرآن: أنّ الله سبحانه يجمع بين الهدى وبين الرحمة والنعمة وانشراح الصدر والحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

اتباع هدى الله يوجد انشراحَ الصدر والحياة

اتباع الباطل يوجد ضيق الصدر والشقاء

ونجد أيضًا في القرآن: أنّ الله سبحانه يجمع بين الضلال وبين ضيق الصدر والشقاء وقسوة القلب والمعيشة الضنك، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

لقد بعث الله تبارك وتعالى جمًّا غفيرًا من رسله مئةً وأربعةً وعشرين ألف نبي وثلاث مئة وأربعة عشر رسولاً، حملوا أمانة تبليغ هدى الله للناس، المتضمن القوانين الضابطة لتصرفات الناس، والعاصمة لهم من ميل النفوس عن الجادّة في حالة ثوران القوة الغضبية أو القوة الشهوانية لتتعدّى الحكمة والرشد والتبصر في العواقب[(١)]، والعاصمة لهم أيضًا من التعلق بغير الله، فيريدهم الله أن يكونوا عبيدًا له وحده أحرارًا من عبودية ما سواه.

لا تعاقب أمة على مخالفة هدى الله إلا بعد إرسال الرسول إليهم

ومن كمال عدله ورحمته أنه سبحانه لا يعاقب أحدًا على مخالفة هداه إلا بعد إرسال الرسول إليهم وإقامة الحجة عليهم، مع أنه سبحانه أخذ عليهم العهد بالإيمان به، وذلك قبل وجودهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ

(١) قال شيخ الإسلام: (فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم) [مجموع الفتاوى ١٩/٩٥].

ﭐلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف]، وأعطاهم العقل ليميزوا به بين الحق والباطل، وأوجد في الكون من الآيات ما تدل على أنه الخالق سبحانه، ومع ذلك لا يعاقبهم على إعراضهم عن هداه حتى يجتمع مع ذلك كله إقامة الحجة عليهم بالرسول البشرى المرسل إليهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

التفسير التاريخي الصحيح لبقاء الأمم

لقد جعل الله سبحانه هُداه صمّام الأمان للناس على ظهر هذه الأرض، وغدا ذلك سُنة لا محيد عنها البتّة، ولقد حكى الله في القرآن هلاك الأمم التي حادت عن هداه، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل]، وهذا هو التفسير التاريخي الصحيح لمسار الأمم على ظهر الأرض وبقائها وزوالها، وعليه يبنى أيضًا المفهوم الصحيح للحضارة التي تستحق الإشادة.

وانقسم الناس أمام هذه الحقيقة والسنّة الشرعية إلى قسمين:

معمّر ومدمِّر

الأول: مصلح مُعَمِّر؛ وهو القائم بهدى الله، فتعمر به الأرض عمارة راشدة، فيزداد الصلاح فيها وينمو.

والثاني : مفسد مدمِّر؛ وهو المخالف لهدى الله، فتخرب الأرض بسبب فعله، بعد أن كانت صالحة قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، والنتيجة في الطريقين حتمية لا مناص عنها: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

قوم نوح وما حصل لهم مثال لتطبيق سنة اتباع هدى الله

وإن من أعظم ما أعلمنا الله به من تطبيق هذه السنة على الناس: ما ورد في قوم نوح حين خالفوا هدى الله، ولم يستجب لهدى الله منهم إلاّ عددٌ قليلٌ، فأهلك الله الكثير منهم لمخالفتهم هدى الله، وأبقى الله القليل لموافقتهم هدى الله، ووجه العظمة: أنه انقطع نسل الكثير منهم، وبقى نسل القليل، فكل من على ظهر الأرض من ذلك الزمن إلى الآن وإلى يوم القيامة فهو من نسل أولئك القليل الذين اتبعوا هدى الله، وركبوا في سفينة نوح عليه السلام. وأما الكثير؛ فقطع الله دابرهم ولم يبق من نسلهم أحد(١).

فما أعظمها من سنة حَقيقَةٍ بالتأمل والتدبر.

---

(١) قال ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾، وعنى بالذرية: جميع من احتجّ عليه جلّ ثناؤه بهذا القرآن من أجناس الأمم؛ عربهم وعجمهم من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أنّ كل من على الأرض من بني آدم فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة [تهذيب تفسير ابن جرير ٥/ ٩].

فطـرة الإنسان تدلّـه أنـه خُلِـقَ لغايـة

وأيضًا أعلمنا سبحانه: أنّه من تميّز خِلقة الإنسان أنّه خلقه على خِلْقَةٍ يشعر بها أن له غايةً في الحياة يعمل لتحقيقها، وأنّ لوجوده هدفًا [1].

العبودية لله هي الغاية من وجود الإنسان

والله سبحانه صاحب الحقّ في الأمر والنهي والتدبير أعْلَم الإنسان أنّ الغاية من وجوده أن يحقّق العبودية لله خالقه وموجده من عدم، وكما كان التوجيه صريحًا واضحًا بلزوم هدى الله وترك كل ما عداه، فإن تحديد الغاية من وجود الإنسان والتي تضمنها هدى الله - وهي أهم ما في هدى الله المنزل للناس - كان التصريح بها واضحًا مدركًا لا لبس فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، فجاء الإخبار عن الغاية لوجود الإنسان بأقوى أساليب الحصر.

العبودية لله هي القيمة المعيارية لحياة الإنسان

وبتحقيق العبودية لله تعالى يكون الإنسان خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة].

بهذا البيان لغاية الحياة، تحددت قيمة الحياة الإنسانية تحديدًا معياريًا يتبيَّن به كيف يمكن أن ترتفع حياة الإنسان لتكون حياة إنسانية حقة، وكيف تنزل لتلحق بحياة ما دون الإنسان.

---

(١) حتى أنّه عندما يشعر أن ليس له غاية في الحياة - وذلك بسبب انحراف فطرته - فإنه يدخل في أمراض نفسية قد تصل به إلى درجة الانتحار.

قال الرّاغب عند قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان]، الإنسان تحصل له الإنسانية بقدر ما تحصل له العبادة التي من أجلها خُلِقَ، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية فصار حيوانًا ودون الحيوان(١).

العبودية لله فطرة في النفوس تولد عليها

ودعمًا لهذه الغاية العظيمة، فإنّ الله الرحيم بالإنسان العليم بما يُصْلِحُه خَلَقَهُ على خِلْقَةٍ موافقة لهذه الغاية، وهي الفطرة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم:٣٠]، وفي الحديث القدسي: قال الله تعالى: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»(٢)، وقال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»(٣).

أسباب اختلال العبودية في حياة الإنسان، هي:
- الانحراف عن الفطرة.
- البعد عن هدى الله.

فالله خلق الناس على خلقة قابلة للتوحيد ودين الإسلام، فالشريعة لم تأتِ لإبطال ما في الفطر، بل كملتها وصدقتها، وهي أيضًا تعتمد عليها لدعم نفوذها، ومدّ سلطانها على النفس(٤)، فالعلاقة بين الفطرة والشريعة علاقة تكامل لا تنافر:

---

(١) تفصيل النشأتين (١٥٠).
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٣) رواه البخاريّ (١٣٨٥).
(٤) قال ابن تيمية: (إن الرسل بعثت لتكميل الفطرة لا لتغيير الفطرة) [منهاج السنة ٨٢/١].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة]، فالإنسان ينحرف عن هذه الغاية بعد تحريف فطرته أولاً، وبُعْده عن هدى الله ثانيًا.

جميع أمور الحياة تحت دائرة العبودية لله

وأعلمنا الله: أنّ العبودية له سبحانه تشمل الجوانب العبادية المحضة كالصلاة والصيام والحجّ، وكذا تشمل الجوانب الحياتية بعمومها ومختلف مجالاتها، فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام]، هكذا بهذا الوضوح في أن مفهوم العبودية مفهوم شمولي لكل حركة الإنسان، وفي شريعة الله ضبطٌ لكلّ تلك الحركة من الإنسان سواء كان فردًا، أو جماعةً.

وأعْلَمنا الله في هُداه: أنّ العمل وَفق ذلك عبادة نتقرب بها إلى الله تعالى، فغدت الحياة كلها وجميع مجالاتها ميدان تعبد وسعادة ومتعة واتّباع وإبداع، فقيمة الحياة الإنسانية إنما تكون مرتفعة أو نازلة في سلم القيمة بقدر ما يأخذ الدين فيها من مكانة في توجيه الفكر والنفس والسلوك.

المؤمن أكثر الناس ثقة في صدق وسلامة وحقانية ما يتبع

فإذا بالمؤمنين يعتمدون على شمول الشريعة السماوية في تنظيم شؤون حياتهم، ويستغنون بها عمّا وراءها من مذاهب ونظريات معتقدين أن في هدايات الله الغنى الكامل. وأن الله جلّ شأنه قد ضبط معاشهم ومعادهم بكلامه وهداه، وإذا بهم عند كل موقف وعند كل حركة يستشعرون أن الله معهم يفتيهم

ويرشدهم ويختار لهم ويدلهم لمصلحتهم، لا تعنيتًا عليهم ولا إضرارًا بهم، فمن أعظم منهم ثقة بصحة ما اختاروا وأحرص على الثبات عليه. فتيقن المؤمنون أن الوحي الإلهي في الرسالة الخاتمة قد كفى وشفى، بل وأعظم من ذلك أنهم ينقادون لهدى الله متيقنين أن هذا حق الله عليهم وليس لهم إلا الاستجابة والطاعة.

تلازم التأثير بين الشعائر التعبدية وأمور الحياة

وحتّى يقوم هذا التلازم بين العبادات المحضة وأمور الحياة جعل الله سننًا شرعية في تأثير كل من الجانبين على الآخر، فالحج والعمرة ينفيان الفقر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثوابٌ إلا الجنة»[(١)]. والصلاة على النبي ﷺ تُذْهِب الحزن والهمّ، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ فقال: «ما شئت» قلت : الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: النصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالثلثين؟ قال : «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: اجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذًا يكفى همك ويكفر لك ذنبك»[(٢)].

(١) رواه الترمذيّ (٨٠١)، وحسّنه الألباني.
(٢) رواه الترمذيّ (٢٤٥٨)، وحسّنه الألباني.

الجنة ثمن العمارة الراشدة

بل إنّ المؤمن وهو يسعد في هذه الدنيا في إطار العبودية يستحق بها عند الله الكريم سبحانه المكافأة على إنجاز العمارة الراشدة في الأرض بأن يسكنه الجنة لينعم في قصورها وخيراتها، قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف].

فغدا المؤمن يُحَلِّق بفكره وعمله الحياتي في إطار العبودية لله عزّ وجلّ، فمن أسعد منه في الدنيا والآخرة، وبهذا تكون الطاعة لله عادة وخلقًا يكتنف كل الحياة، وهذا هو الدين، وهكذا يكون التديّن به(١).

المؤمن يحب ربه ويحب من يحبّ ربّه

إن هذا البناء الصحيح يجعل المؤمن يحبّ ربّه فوق كلّ شيء ويؤدى عبادته، ويتلذّذ بها، ويُخْضِع كل شيء لإرادته سبحانه، ويُحِب من يفعل مثل فعله ويبغض من يخالف فعله والله سبحانه جلّ في علاه يحب المؤمن المحب له، ويرضى منه الطاعة ويفرح بتوبته، ويبغض المعارض لطاعته ويمقته ويلعنه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والدين هو الطاعة والعبادة والخُلق، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخُلقًا، بخلاف الطاعة مرة واحدة، ولهذا فسّر الدين بالعادة والخُلق، ويفسر الخُلق بالدين أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم]، قال ابن عباس: على دين عظيم) [قاعدة في المحبة:٣٢].

الله سبحانه لا يحب الكافرين

وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٤٥]، إنّ ها هنا حقيقة في غاية الأهمية ندرك بها حقيقة التشريع ووظيفته الأساس، وندرك بها أحد أهم المفارقات بين شريعة الله وغيرها من الأنظمة والقوانين، وهي أن شريعة الله بكل ما فيها من أحكام وتشريعات وظيفتها الأساس وظيفة تعبدية وتربوية للنفس الإنسانية المكرمة من الله قبل أن تكون وظيفة قانونية(١).

الوظيفة الأساس للشريعة تعبديةٌ وتربويةٌ لنفس الإنسان

إن العلم الصحيح هو طريق الإيمان بهذا الأصل العظيم، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

العلم هو الطريق إلى الإيمان

إن الذي لا علم له بطريق الإيمان أعمى، والأعمى يقاد إلى أي اتجاه ولو كان فيه مضرته؛ لأنه أعمى، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكثير من الناس يقصر نظره عن معرفة ما يحبه الله ورسوله من مصالح القلوب والنفوس ومفاسدها وما ينفعها من حقائق الإيمان، وما يضرها من الغفلة والشهوة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم] فتجد كثيراً من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يرى من المصالح والمفاسد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن) [مجموع الفتاوى ٣٢/٢٣٣].

فالمسلم المقلد الذي لا يبني إيمانه على هذا الأصل العظيم، فإنه يسهل عليه أن يستجيب لأية دعوة مخالفة لهدى الله، أو على أقل تقدير أنها تشككه في هذا الأصل العظيم أو تضعف إيمانه به.

لقد جعل الله سبحانه القرآن العظيم وتدبره شفاء لذلك كله قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

مـرادات الله سبحانه من غاية خلق الإنسان

إن هذا الأصل العظيم يحدد لنا عددًا من مرادات الله سبحانه من هذا الإنسان، وهي:

١- إدراك الإنسان وإيمانه بأن الغاية من خلقه أن يحقق عبادة الله في حياته.

٢- أن الله يريد أن يكون المسلم عبدًا لله اختيارًا كما هو عبدٌ لله اضطرارًا. فهو رجّاع إلى الله سبحانه في جميع أحواله بمحض إرادته.

٣- إدراك الإنسان شمولية مفهوم العبودية لله وحده، وهو المرجعية الوحيدة والأساس لحوكمة جميع أفعال الإنسان الفكرية والاعتقادية والسلوكية.

٤- أوجب ما على العقل معرفة الله عزّ وجلّ، والرضى والحبّ له سبحانه، والخضوع من المؤمن لربّه في كل ما يعمله ويجعله في طاعة ربّه، والحبّ لمن يحبّ ربّه ويطيعه، والبغض لمن لا يحبّ ربّه، ولا يطيعه.

٥- من العبودية لله سبحانه العملُ على إبقاء صلاح الأرض وتنمية هذا الصلاح وَفق ميزان الصلاح الربّاني، وعدم تغيير الصلاح الأصليّ، أو إحداث الفساد فيها.

٦- الوحي هو المرجع في تقويم الصالح والضار في كل أمور الدنيا والآخرة.

٧- الإيمان بأن ما جاء به الوحي حقائق معصومة غير قابلة للعرض والاختبار، فلا تُعَامل مثل النتاج العقلي.

٨- إدراك المؤمن لتميزه وكرامته على ربّه في غير كبر.

٩- يعلم المؤمن أن الله يحب من حقق عبادة الله، وأنه يبغض من خالفها.

١٠ - عبادة الله عز وجل وتزكية النفس والمحافظة عليها والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها هو من الدين المشترك بين جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

الأصل الثاني: الإنسان مورد التكليف الشرعي.

الإنسان مقصود رسالات السماء

إنّ هذا الإنسان المكرم الذي أسجد الله له الملائكة، وجعله خليفة في الأرض، وحدّد له الغاية من الحياة، وهي أسمى ما في الحياة توحيد الله وإفراده بالعبادة، غدا هذا الإنسان مقصودَ رسالات السماء، فأنزل الله له كلامه المقدس

الإنسان مورد للتكليف الشرعي

وأذن له بأن يردده ويتلوه، وأصبح هذا الإنسان موردًا للتكليف بشريعة الله العظيم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]، وكم يكون احتقارًا للإنسان المكرم من ربه حين نُنْزله من هذه المكانة الرفيعة - كونه موردًا للتكليف الشرعي - لنجعله موردًا للعمارة المادية للأرض فحسب، ونذكره على السواء في مصاف الموارد المالية والحيوانية والمعدنية وغيرها من الأشياء المادية التي خلقها الله وجعلها مسخّرة لهذا الإنسان المكرّم حتى يؤدي رسالته العظيمة في هذه الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان]، وكم يكون الانحراف في التربية عندما ينشأ الإنسان ويبني فكره على أن العمارة المادية للأرض هي مقصوده الأوحد في الحياة، وهي مقوّم الإنجاز الأوحد له في هذه الدنيا، فيفاجأ يوم القيامة بميزان الحقّ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

عمارة الأرض ليست قسيمًا لعبادة الله

كم يحتاج الذين خُدعوا بهذا الفكر المنحرف، وظنوا أن الحضارة الحقيقية هي عمارة هذه الأرض وتشييدها فحسب، إلى تأمل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]، فلو كان عمارة الأرض مقصودًا رئيسًا

للرّبِّ سبحانه مع العبودية له؛ لعُدُّوا أنهم أنجزوا شيئًا من مقاصد الخلق، فلِمَ يعاقبهم ويدمِّر ما شيدوه بإهلاكهم، ولكن لما كانت الحقيقة أن عمارة الأرض أمرٌ تبعيٌ للغاية الوحيدة من الخلق، وهي: عبودية الله وحده، واتِّباع هداه. لذلك؛ عندما لم يقوموا بالأصل لم ينفعهم الفرع، فدمَّر الله عليهم ما شيدوه. ولذا؛ ندرك خطأ من يقول: الغاية من خلق الإنسان عبودية الله وعمارة الأرض. فجعل عمارة الأرض قسيمًا لعبودية الله، والحقّ أنها تبعٌ لها، فالعمارة الراشدة للأرض هي التي تسهم في تحقيق العبودية لله عزّ وجلّ.

بناء الإنسان طريق إنجاز غاية الخلق

إن هذا الإنسان الفرد هو المحور الرئيس والمنطلق للقيام بالمهمة التي كلّف الله بها الناس، وإن تلك المهمة لأدائها تحتاج إلى الإنسان المعدّ إعدادًا تُبنى فيه القابلية والمهارة الكافية لذلك الأمر الإلهي، وإن لم يكن ذلك الإعداد لم يتحقق المطلوب، وكان ذلك الإنسان غير مستعدّ لتحقيق هدف الوجود، فالبناء الصحيح لهذا الإنسان الفرد شرطٌ ضروريٌ لذلك.

لقد أعلمنا الله في هداه أنه خلق الإنسان مريدًا فاعلاً، وأعطاه أداة التفكير والإبداع، وهي قوة العقل، وأعلمنا الله أنه في مقابل الإرادة التي أعطاها للإنسان جعله مكلفًا مسؤولاً عن عمله، مجازًا عليه حين الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه للحساب، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

الإنسان مخلوق مهيأ لتحمل المسؤولية

وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ومع ذلك لم يترك الإنسان لوحده. فالله سبحانه خلق الإنسان على خلقةٍ قابلةٍ لتحمل المسؤولية، وقابلة للتوجيه، وشريعة الله سبحانه تعلمنا كيف يعمل هذا الإنسان لإنجاز الأعمال، وما هي الجهات الفاعلة فيه، وكيف نكمل بناء المسؤولية فيه، ووضحت لنا مقومات الصلاح لكل تلك الأعضاء، وأعطتنا مادة صلاحها، وحذَّرتنا من مواد عطبها وتلفها، كل ذلك في نظام بديع، لا يسوغ شرعًا عدم العمل بها، أو تجاوزها إلى غيرها من الطرق والأنظمة، ولو كان بقصد تحقيق الغاية التي أرادها الله من الإنسان.

فالإنسان في المنظور الشرعي حتى يكون مُجازًا على عمله لا بدَّ أن تكتمل فيه جوانب التكليف، والتي بإدراكنا لها ندرك كمال العدل الإلهي مع هذا الإنسان، وندرك التكامل التي سلكته الشريعة لينتظم التشريع بين الآمر المكلِّف به، والإنسان المكلَّف، والعمل بالتكليف.

ونقرب ذلك في النقاط التالية:

فأولا: لا يكون الإنسان مكلفًا مجازًا على عمله حتى يصل إلى سنّ البلوغ، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم**»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠١)، وصححه الألبانيّ.

وثانيًا: أن يكون الإنسان عاقلاً، فلو فقد العقل سقط عنه التكليف.

ثالثًا: أوجب الله على الوالدين ومن يناط به أمر تربية وتنشئة الطفل أن يربيه على طريقة تُعدّه وتهيئه لمرحلة التكليف، ومدار هذه المرحلة على:

١. المحافظة على الفطرة وعدم تغييرها.

٢. بناء محبة الله في قلبه وتوسيع معرفته بربه.

٣. تعريفه بحقّ الله عليه من العبودية له سبحانه، دون أحدٍ سواه.

٤. تعويده على ما يطيق من العبادات بدون مشقّة عليه.

وأعدّ الله عقوبة عظيمة على المفرطين في تربية أطفالهم على هذه الطريقة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**»(١).

رابعًا: أن الإنسان مسؤول عن عمل نفسه لا عن عمل غيره، إلا إذا كان راضيًا به، مُعينًا على إنجازه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم].

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩٢)، وحسّنه الألبانيّ.

خامسًا: أن المسؤولية تبنى على أحكام شرعية واضحة المعنى ومدركة، ومعينة درجة الإلزام بها فعلاً أو تركًا، وواضحةً في طريقة الأداء، وهو ما مثَّله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفعله، وأن يكون فعلها ممكنًا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥]، وقال عزّ وجلّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

سادسًا: أن الجزاء لا يكون إلاَّ على العمل الذي عمله الإنسان بإرادته مستحضرًا الحكم الشرعي له، غير ساهٍ ولا ناسٍ ولا جاهلٍ بالحكم، وبدون إكراه من أحد، وعند الإكراه على فعل المخالفة يعذره الله بفعله ما دامت إرادته مخالفةً للعمل المكره عليه، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

سابعًا: أن يقصد بعمله التعبد لربه عز وجل (اعمل والله غايتك) ففساد هذه النية لا يجبرها سلامة العمل في ظاهره، ولكن سلامة النية كثيرًا ما تجبر ما يطرأ على العمل من نقص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[1].

---

(١) رواه البخاريّ (١).

ثامنًا: الإنسان مكلف ببذل الجهد في تحويل النوايا الصالحة إلى عمل، فالإيمان: اعتقاد وقول وعمل.

أهمية العناية بالعقل والنفس

فالعقل والنفس أخذا العمق في بناء الإنسان في المنظور الشرعي، وأعمال الجوارح كانت هي المؤشر لصحة ذلك البناء المعنوي والمتمم له، فالإيمان اعتقاد وقول وعمل[١].

إصلاح الإنسان ليحقق مراد الله محصور في اتباع هدى الله

إن وضوح ذلك في الشريعة وكماله[٢]، وتحذير الخالق سبحانه من مخالفته وتجاوزه إلى غيره، جعلَ العلماء يقررون **أنه لا يصح ولا يجوز إصلاح هذا الإنسان - ليحقق مراد الله في الأرض - بغير الطريقة الشرعية التي وضعها رب الأرباب سبحانه وتعالى وجاء بها رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطريق الوحيد لمعرفة الطريقة الشرعية التي جاءت من ربنا سبحانه**[٣].

(١) قال ابن القيم: (فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ماكانت، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار. كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه ذلك من النار..) [الفوائد ٢٠٤].

(٢) سيأتي بيان شيء من أصول تلك الطريقة الشرعية في بناء الفرد وإصلاحه.

(٣) قال ابن القيم (هجر القرآن أنواع أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه. والثاني هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

الاجتماع ضرورة للإنسان

وأمام هذه المهمة العظيمة إلا أنّ الإنسان بمفرده، وبما هو موصوف به من صفات العجز والضعف، لا يمكن أن يحقق لوحده الخلافة التي أمره الله في الأرض، وكلّفه بها، إلاّ أن يكون منتظمًا ضمن هيئة جماعية، فخلقه الله تعالى مُهيئًا للاتحاد والمعاشرة؛ إذ الإنسان مدنيُ بطبعه[(١)]، فنجد أنه طُبِع على حبّ اتساع المطمع، والرغبة في جلب النافع، والتوسّع فيه، ودفع الضارّ. كل ذلك مع ضعف القدرة في تحقيق مقصوده بنفسه، فأصبح هذا الإنسان محتاجًا إلى من يعينه على تحقيق أهدافه، فالتآلف والتناصر بين الأفراد الذي نراه، له هذا الدافع الغريزي، وأصبح الإنسان محتاجًا إلى التجمع والتحبب مع الآخرين؛ ليتمكن من الاستنجاد عند الاحتياج. وإكمالاً

الشريعة توجّه الإنسان للاجتماع

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تُحصِّل العلم. والرابع: هجر تدبره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه. والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به. وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض. وكذلك الحرج الذي في الصدور منه... وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات ... فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن ...) [الفوائد ١١٣-١١٤].

(١) قال ابن القيم رحمه الله: (فإن الإنسان مدنيٌّ بالطبع لا بد له من أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصوّرات يطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذّبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم ..) [الفوائد ١٨٨].

تكامل الفطرة مع التشريع

لهذا البُعْد الغريزي الذي خُلِق عليه الإنسان جاءت شريعة الله بمعالجة الفردية والأنانية، وحاربت العزلة والانكماش، وأمرت بانتظام الإنسان في مجموعة من الناس، وشرعت ما يُقوِّي صلة الفرد بالمحيط الذي يعيش فيه، قال ﷺ: «**لا زِمام ولا خِزام ولا رَهْبانيَّة ولا تَبَتُّل ولا سِياحة في الإسلام**»[(١)]، وقال ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خيرٌ من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»[(٢)].

ولقد ألزمت شريعة الله الإنسان بتحقيق غاية الوجود (العبودية لله تعالى)، فهو يقيم المصالح التي قصد الشارع المحافظة عليها بحسب طاقته، ومقدار وسعه من خلال بُعْدَيه الفردي والجماعي.

المسؤولية الفردية أصل في الشريعة

فالمسؤولية الفردية (أي: أنّ الإنسان مسؤول عن تصرفات نفسه) أصلٌ في الشريعة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

---

(١) أخرجه ابن قتيبة في (غريب الحديث ١/٤٤٤)، وقال الألبانيّ في (السلسلة الصحيحة: ١٧٨٢): إسنادٌ رجاله ثقات، وهو مرسلٌ.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢)، وصححه الألبانيّ.

المسئولية الجماعية أصل في الشريعة

كما أنّ المسئولية الجماعية (أي: أنّ أفراد المجتمع مسؤولون عن إصلاح مجتمعهم) أصلٌ في الشريعة أيضًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]، وقال ﷺ: **«كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته»**[(١)]، وقال ﷺ: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»**[(٢)]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[(٣)].

(١) رواه البخاريّ (٢٤٠٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٢٩).
(٢) رواه البخاريّ (٢٤٩٣).
(٣) رواه مسلم (٤٩).

بهذا التوجيه الشرعي تعالج شريعةُ اللهِ السطحيةَ والسذاجةَ والاستخفافَ بالحياة والعبثيةَ لدى الأفراد، وتبني المسؤوليةَ بصورة صحيحة؛ لتجعل الإنسانَ أمامَ محك واضح يستشعر فيه رسالة الحياة، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

العمل مع المجتمع للمصلحة الذاتية فقط خطأ شرعي

وأيضًا بهذا التوجيه الراشد تعالج شريعةُ الله الانتماءَ السلبيَ الخاطئَ من الفرد للمجتمع، والقائمَ على تفاعل الفرد مع مجتمعه بدافع المصلحة الذاتية فحسب، إلى الارتقاء بالتفكير لتحصيل مصلحته من جهة، وأنّ لمجتمعه حقًّا عليه من جهة أخرى، فالمجتمع في المنظور الشرعي هو المحضن الضروري لقيام الإنسان بالمهمّة التي خُلِق من أجلها، سواء في بعده الفردي أو الجماعي، وانتظام المجتمع وطلب المصالح له ودفع الضرر والفساد عنه، من أهمّ مقاصد الشريعة. وإن من لطائف الشريعة في هذا الأصل أن الإنسان مكلف بأن لا يقتصر عمله لمجتمعه ومن حوله من الناس في زمنه فحسب، بل تدفعه الشريعة ليتحمّل شيئًا من المسؤولية عن مصالح من يأتي بعده من الناس، قال ﷺ: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[(١)]. وقال في

ثلاثية المسؤولية:
- نحو الذات.
- ومجتمعه الحاضر.
- والأجيال المستقبلة.

(١) رواه البخاريّ (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) واللفظ له.

الأوقاف نموذج المسؤولية نحو الأجيال المستقبلية

معرض الحثِّ والترغيب على هذا الحقّ الذي على الإنسان: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1]، وإن من أوضح التشريعات الدّالة على ذلك: تشريع الأوقاف، فهي أموال وممتلكات توقف لينتفع منها الأجيال القادمة، سواء ذرية الواقف أو فئة من المسلمين المعاصرين للواقف ومن بعدهم، أو لأعمال تنشر هذا الدّين وتبلغه للناس، فما من أحد من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده مالٌ إلاَّ وقد أوقفَ، استجابة للتوجيه الشرعي في ذلك، فمنهم عمر بن الخطاب وأبو طلحة رضي الله عنهما. فعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أصاب عمر أرضًا بخيبر فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ أرضًا بخيبر لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي منه فما تأمرني به؟ قال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**»، قال فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب، قال: فتصدق عمر في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح على من وليها أن لا يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير متمول فيه[2].

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه البخاريّ (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢) واللفظ له.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بير حاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإن أحب أموالي إليّ بَيرُحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، فقال: «**بخ، ذلك مال رائح، ذلك مال رائح. قد سمعت ما قلت فيها، وأرى أن تجعلها في الأقربين**». قال أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[(١)].

من أبرز صفات الحضارة الإسلامية

ومن هنا: نجد أن الحضارة الإسلامية موصوفة بالاستدامة، كما أنها حضارة إنسانية لارتقائها بمكانة الإنسان، حين جعلته مورد التكليف الإلهي. وتوصف بأنها حضارة شعبية، حيث فعَّلتْ جميعَ الأفراد على مختلف مستوياتهم، ولقد جاء الدّين بأحكامٍ مقصودٍ منها حفظَ المجتمع حتى يكون صالحًا لأن يؤدّي الإنسان المهمة المكلّف بها، وإن عمق الابتلاء والامتحان لهذا الإنسان في مدى تأثره واستجابته لطريق المغضوب عليهم والضالين وهم شياطين الجن والإنس، فالله سبحانه أوجد في الفطر التدافع بين الأجناس المتضادة، فالشياطين تدعو إلى الشر ومخالفة أمر الله وهداه،

الشيطان عدو الإنسان

(١) أخرجه البخاريّ (٢٣١٨).

قال تعالى حاكيًا قول إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص]. وجعلهم سبحانه للإنسان أعداء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وحذَّر من طاعته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾[البقرة]. وبيَّن أن عداوته قديمة قِدم وجود جنس الإنسان، وأنها ثابتة لا تتغير، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وأخبر أن فريقًا من الناس خُدِعوا بمكره، فأصبحوا من جنده، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج:٣-٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٨-١٩].

من مقاصد الدّين مخالفة طريق الشياطين

فعلى هذا عُدّ مخالفة طريق الشياطين وأتباعهم من مقاصد الدّين[(١)].

فكلما بني في النفس هذه العداوة كانت وازعًا قويًا ينضم مع الوازع الذهني المبني على استشعار مراقبة الله، فيكمل كل منهما الآخر في بناء حاجز عن قبول الانحراف عن هدى الله عز وجل.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/١٤١).

مـرادات الله سـبحانه مـن معرفة حكمة خلـــــق الإنســـــان

إن الثمرة التي نجنيها من هذا التأصيل هي إدراكنا لعدد مـن مرادات الله سبحانه من الإنسان، وهي:

- استشعار المسلم وإيمانه أن طاقاته وإمكانياتـه مـوردٌ للتكليف الشرعي الإلهي.
- إدراك المسلم للشرف والعزة كونه موردًا للتكليف الشرعي الإلهي.
- إدراك المسلم أن بذل طاقته وإمكانياته في غير تفعيل التكليف الشرعي إهدارٌ لإنسانيته، وامتهانٌ لها، وتعريضٌ لها للعقوبة الإلهية في الدنيا والآخرة.
- استشعار المسلم المسؤولية الكاملة أمام الله نحو جميع تصرفاته.
- استشعار المسلم المسؤولية المشتركة أمام الله نحو تصرفات مجتمعه.
- استشعار المسلم المسؤولية المشتركة أمام الله نحو مصالح الأجيال المستقبلية.
- إدراك المسلم أن شريعة الله كما خلقـت فيـه دوافـع الاحتياج لأخيه الإنسان فهي تأمره بالاجتماع معهـم والتعاون مع إخوانه، وتحذره من الانعزال عنـهم إلاّ في حالات محددة ولأمور طارئة.

- أن التكليف الشرعي مستجمع جوانب العدل من بنائه على قدرة الإنسان العقلية والنفسية والتكليف بالمُطاق المعلوم، والإعذار عند الإكراه والنسيان وعدم القدرة.
- اندفاع المسلم نحو وحي ربه ليتعلم منه كيف يصلح نفسه، ويهيئها لتحقيق غاية الحياة النبيلة التي حددها له ربه عز وجل.
- شياطين الإنس والجن هم أعداء الإنسان يدعونه لمخالفة هدى الله.
- مخالفة الإنسان هدى الله يعني طاعته لعدوه ومخالفته لمحبوبه.

الأصل الثالث: الآخرة دار المجازاة العادلة.

لا بد أن ندرك أنه ينبغي أن يكون أساس الانقياد لهدى الله هو استشعار المسلم أن هذا هو حقّ الله عليه، فهو يفعل ما أمره الله به، ويخضع له سبحانه وقمة الرضى في شعوره أنه أنجز المهمة التي خلقه الله من أجلها وهي العبودية لله سبحانه، وإن كانت شريعة الله تضمنت المصلحة له ولا حرج في طلبها، ولكن لا يصح منه أن يكون مقصوده مجرد تحصيل المنفعة[(١)]، بل لا بد من استشعار الأمرين معًا.

الإنسان حارث همام

اللذة غاية لتحصيل النافع ودفع الضار

فلقد خلق الله الإنسانَ حارثًا همَّامًا (فاعلاً مريدًا)، فالمحبة قوة فاعلة فيه تدفعه لإدراك الأمر الملائم المحبوب المشتهى، واللذّة والسرور هما الغاية التي يجدها عند إدراك المحبوب، والألم يجده عند عدم إدراك المحبوب أو عند نيل المكروه،

---

(١) عبّر عن ذلك ابن القيم بأسلوب بديع رائع فقال: (وأعلى الهمم في باب الإرادة: أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف مع مراده الديني الأمريّ، وأسفلها: أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله، فهو إنما يعبده لمراده منه لا لمراد الله منه، فالأول: يريد الله ويريدُ مراده، والثاني: يريد من الله وهو فارغ عن إرادته) [الفوائد: ٢٣٩].

العقل يدرك النافع والضار

وخلق الله فيه قوة العقل لإدراك النافع الملائم، والضارّ غير الملائم، ومعرفة الحقّ والباطل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

سعادة الدارين أرادها الله لعبيده

ولمّا كان الإنسان يعيش حياتين، الدنيا والأخرى كما هو الاعتقاد الحقّ، والله العليم الحكيم الرحيم هو الذي تكفل بوضع أصول الصلاح للإنسان لقصوره عن إدراك ذلك بصورة صحيحة كاملة كما سبق تأصيله، تضمن منهج الهدى التخطيطَ للصلاح في الدّارين، وإظهار الترابط بينهما، وأنّ الله سبحانه لا يرضى للإنسان الذي هو من أكرم مخلوقاته أن يعيش السعادة في إحدى الدارين دون الأخرى؛ لأن ذلك من الخسارة، والله سبحانه لا يريد للإنسان الخسران، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء]، ففي الإخبار عن مجازاة الصالحين في الدارين يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[النحل]، فجمعت له المجازاة في الدنيا والآخرة، وفي المجازاة للطالحين في الدارين يقول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾[البقرة].

الآخرة دار المجازاة الأكمل

هذا؛ وإن كانت الآخرة هي الدار التي جعلها الله محلاً رئيسًا للمجازة الأكمل على أعمال الناس، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، لذلك جاء الإخبار عن المجازاة في الآخرة بالتوفية، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]، قال ابن سعدي: (أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأمّا ما دون ذلك؛ فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدّنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]، فالله سبحانه لعدله ورحمته جعل في الدنيا من جنس نعيم الآخرة ترغيبًا فيها، وتحفيزًا للثبات على هداه، كما جعل فيها من جنس عقوبة الآخرة تحذيرًا للمخالفين لهداه)[(١)].

دار الدّنيا تجمع بين العمل والمجازاة

وكون الدنيا فيها شيء من المجازاة لا يلغي حقيقتها أنها دار للعمل ودار للابتلاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٥٩).

١٥٥]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

عرض صلاح الدنيا دون الآخرة ليس من هدى الله

ومن هنا عُدّ مخالفةً لهدى الله: أن يُعرض الصلاح الشرعي للإنسان في دار الدّنيا دون ربطه بصلاح داره الأخرى، وكذلك يُعدّ مخالفةً لهدى الله: أن يُعرض الصلاح الشرعي للإنسان في الدار الآخرة دون عرض الصلاح في دار الدنيا. بل في هدى الله نجد أن السعادة الأخروية هي امتداد للسعادة الدنيوية، وأنّ تحقيق السعادة في الدنيا شرط لنيل السعادة في الأخرى، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢﴾ [الأعراف]، وقال شيخ الإسلام: (إنّ في الدنيا جنّة من لم يدخلها لن يدخل جنّة الآخرة)[1].

القانون الذهبي

ومن هنا: وضع العلماء ميزانًا لهذا التلازم بين الحياتين، وبين السعادة أو الشقاء، يظهر من خلاله كمال العدل في المجازاة من الرّبّ العادل لعبيده، حُقّ لنا أن نسميه: **الميزان الذهبي العادل**، والذي يقوم على ثلاث معادلات توزن بهذا الميزان جميع أعمال الناس، وهو ينصّ على ما يلي:

- كلّ لذّة في الدّنيا تورث لذّة في الآخرة أو تدفع ألمًا في الآخرة، فهي مأمورٌ بها شرعًا.

(١) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/١٥٣).

- كلّ لذّة في الدّنيا تورث ألمًا في الآخرة، أو تحرم من لذّة في الآخرة، فهي محرّمة شرعًا.

- كلّ لذّة في الدنيا لا تورث لذّة في الآخرة ولا تحرم من ألم في الآخرة، فهي باطلة(١).

ليس من هدى الله عرض صلاح الآخرة دون صلاح الدنيا

فاتضح بجلاء من خلال هذا الميزان الذي استنبطه العلماء باستقرائهم لهدى الله: أنّ الله يريد للإنسان الربح والسعادة في الدّارين، وأنّ حصوله على السعادة في دار الدنيا بأعمال لا يترتب عليها دفعُ عذابٍ أو ألم عنه في الآخرة، ولا يترتب عليها تحصيل لذّة وسعادة له في الآخرة - مع إمكانه أن يحقق ذلك له - يعدُّ فعله باطلاً، وليس المقصود الحُرمة بقدر أن المراد تحريك النفس للإفادة من المباحات، وكيف يسلك الإنسان عند أدائها حتى تكون سببًا لسعادة الآخرة كما كانت سببًا لإسعاده في الدّنيا، وكذا لا يرضى الله بأن يعمل الإنسان في الدنيا محرمًا نفسه من ملاذها المشروعة له، ظانًّا أن المتعة لا تكون بحال إلا في الآخرة، لذا قال سبحانه منكِرًا على من هذه حاله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف]، ثم بيّن أنه خلقها ليتمتع الناس بها في الدّنيا على توازن بيَّنه هدى الله، وهي أيضًا متعة لأهل الإيمان في الآخرة

(١) انظر: الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/١٥٢)، وانظر: الجواب الكافي لابن القيم (٥٤٢-٥٤٤).

خالصةً لهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف].

وفي حديث الثلاثة الذين أراد أحدهم الزّهد في النكاح، وأراد الثاني صيام الدهر كلّه، والثالثُ قيامَ الليل كله، وكيف كان موقف النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم في الإنكار على ما قصدوا عمله، ثم ختم الإنكارَ بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن رغب عن سنتي ليس مني**»[1]، وفي هذا تحذير للأمة أن تنسب للإسلام هذا التوجه وهو الإحجام والعزوف عن ملاذ الدنيا المباحة للناس.

واقرأ ماذا قال شيخ الإسلام وهو يجلي هذا الأمر: (ومن المعلوم أنّ العبد وإن أقرّ بالآخرة، فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا، فقد يطلب ما لا بدّ منه من دفع الضرر وجلب المنفعة، وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظنّ أنّه مباح، فإذا اعتقد أنّ الدّين الحقّ قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدّين الحقّ، وفي حال السابقين والمقربين؛ بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين، فيدخل مع الظالمين؛ بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر، وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه كما قال النبي ﷺ: «**يصبح**

(١) رواه البخاريّ (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1]، وذلك إذا اعتقد أنّ الدّين لا يحصل إلا بفساد دنياه، ولذلك فإنّه يفرح بحصول الضرر له، ويرجو ثواب ضياع ما لا بدّ له من المنفعة، وهذه الفتنة التي صدّت أكثر بني آدم عن تحقيق الدّين، وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كلّ وقت ...)[2].

حفظ المال مقصود شرعي

إنّ من أظهر ما يُفعّل به هذا الميزان أن نسأل ما هو موقف الشريعة من المال وهو أعظم ملاذّ الدنيا. فما هو موقفها من حيث كسبه وتنميته، فإننا نجد أن من مقاصد الشريعة حفظ المال، فالله سبحانه جعل المال قوام الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥].

فقد تضافرت الأحكام الشرعية على تحقيق مقصد حفظ المال، ليقوم بدوره في تنمية الحياة الإنسانية وترقيتها وتعميرها من جهات متعددة، ويحقق إشباع اللذة التي هي غاية للعامل من عمله، فنجد كسب المال وتنميته من أهم الأسباب التي تيسر للإنسان قيامه بمهمة الخلافة التي خلقه الله من أجلها. فتأمل كيف كانت عناية الله بالمال.

حفظ المال بالكسب

فحفظ المال يكون **أولاً** باكتسابه، قال الله تعالى موجهًا لكسب المال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن

(١) رواه مسلم (١٨٦).

(٢) قاعدة في المحبة (١٤٠).

﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ ۝١٠﴾ [الجمعة: ١٠]، والمراد بالابتغاء من فضل الله هو كسب المال، وتحصيله بالسعي في الأرض.

حفظ المال بالتنمية

ثانيًا: حفظ المال بالتنمية. أي: تكثيره، وذلك بعد حصول أصله، فهو مطالب أن ينمّيه ولا يتركه يتآكل بالإنفاق، ونأخذ هذا من مثل قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١)، ولم يحدد كم هو مقدار الغنى الذي يتركه لأولاده ليكون الاجتهاد في ذلك من الوالد.

ويدل على التنمية أيضًا توجيه النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**اتجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة**»(٢).

حفظ المال من التلف العبثي ومن التلف السرفي

ثالثًا: حفظ المال من التلف سواء كان إتلافًا عبثيًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله**»(٣)، أو كان إتلافها بالإسراف فيها وعدم التوازن في

---

(١) رواه البخاريّ (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) رواه الطبرانيّ في (الأوسط ٤١٥٢)، وقال الهيثميّ في (المجمع ٣/٢٠٧): إسناده صحيحٌ.

(٣) رواه البخاريّ (٣٢٨٧).

صرفها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

حفظ المال بحماية الملكية

رابعًا: حفظ المال بحماية الملكية، فالشريعة تحرم أكل أموال الغير بالاستيلاء عليها بغير وجه حقّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعظم موقف مع أمته في حجة الوداع: «**إنّ دماؤكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[(١)].

حفظ المال بحماية قيمته

خامسًا: حفظ المال بحماية قيمته من الأسباب المصطنعة التي تفقده قيمته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، فيدخل فيه كل تنقيص للمال بالتعييب والتزهيد فيه بطريق غير مشروع، فحرَّم النجش، وأن يبيع الرجل على بيع أخيه.

(١) رواه البخاريّ (١٧٤١)، ومسلم (١٢١٨).

وأمام هذه التوجيهات في كسب المال وتنميته والإفادة منه نلمس أيضًا في الشريعة التوازن في هذا الأمر فالتوازن أولاً في أن لا يكون طلب المال هو المقصود الوحيد والرئيس للإنسان في هذه الدنيا، فيعطل الإنسان الأوامر الشرعية المكلف بها لأجل جمع المال، فالنّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**»[1]، وثانيًا التوازن في طريقة الكسب، وثالثًا التوازن في طريقة الإنفاق.

إنّ فيما ذكرتُ دلالةً على حرص الشريعة على عمارة الأرض ولكن عمارة راشدة. ويدل أيضًا على حرص الشريعة على صلاح حياة الإنسان على ظهر الأرض وسعادته فيها. ومثل ذلك يقال في متعة النكاح، فالمال والنكاح من أكبر متاع الدنيا.

فالثمرة التي نجنيها لدى الفرد من بناء هذا الأصل والتي تحدد له مراد الله منه هي:

مرادات الله سبحانه من غاية الجزاء والحساب

- العبودية لله هي غاية الطاعة والانقياد لأمر الله وهداه.
- إدراك المؤمن وإيمانه أن الرسل بعثت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها في حياة الناس بحسب الإمكان .

---

(١) أخرجه البخاريّ (٢٨٨٦).

- إدراك المؤمن وإيمانه أنه بعد حياته الدنيا يبعثه الله ليُجازى على كل عمله وكذا كل إنسان. وأن الجنة دار المؤمنين، والنار دار الكافرين.

- وضوح الرؤية لدى المسلم في شأن عمارة الأرض، فهي طريق يسلكه ليستمتع به في الدنيا، وليكون طريقًا للفوز بالآخرة.

- أن الاستمتاع بالملاذ الدنيوية المشروعة لا يتعارض مع العمل على تحصيل الملاذ الأخروية.

- أن جواز الاستمتاع بملاذ الدنيا المباحة لا يلغي أن الأصل فيها أنها دار عمل وابتلاء وامتحان، وأنها مزرعة للآخرة.

- أن من الافتراء على الله عرض الشريعة أنها تقصد صلاح الدنيا فقط، أو عرضها أنها تقصد صلاح الآخرة فقط، وأن العدل والنصَفَ عرض الشريعة أنها تقصد صلاح الدّارين.

- معرفة مراد الله وحكمه والالتزام به في كل أنواع العمارة للأرض، فهو طريق واضح للمسلم.

- أن العلم النافع الذي يطلبه المسلم من الوحي ثمانية أنواع، هي:

١- معرفة النافع في الحياة الدّنيا.

٢- معرفة الطريق الموصل إليه.

٣- معرفة الضار في الحياة الدّنيا.

٤- معرفة الطريق الدّافع له.

٥- معرفة النافع في الحياة الآخرة.

٦- معرفة الطريق الموصل إليه.

٧- معرفة الضار في الدّار الآخرة.

٨- معرفة الطريق الدّافع له.

- أن شمول الصلاح في الشريعة يتضمن الشعائر العبادية وجميع أمور الحياة الأخرى، كما يتضمن صلاح الدنيا والآخرة معًا، ويشمل الجوانب المعنوية، كما يشمل الأمور المادية (١).

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن أنكر ما اشتملت عليه الشريعة من المصالح والمحاسن والمقاصد التي للعباد في المعاش والمعاد .... فهو مخطئ ضال يعلم فساد قوله بالضرورة) [مجموع الفتاوي ١٧٩/٨].

العبودية حقُّ الله على العبيد كلهم

التوحيد والاجتماع أصل في بني آدم، والشرك والافتراق طارئ عليهم

الناس كلهم خلق الله عزّ وجلّ وعبيده، وهو سبحانه أعدل العادلين، فالابتلاء والامتحان الذي هو حكمته من خلق الناس يدخل فيه كل إنسان، والغاية التي حددها الله وهي العبودية له سبحانه، مخاطب بها كل الناس، والجزاء واقع على كل من قامت عليه الحجة ببيان غاية الوجود، فالله سبحانه وتعالى مراده أن يحقق الناس العبودية لله عز وجل وأن يجتمعوا عليها وأن لا يفترقوا ويختلفوا، فكان آدم أبو البشر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أوّل من سكن الأرضَ من جنس الإنسان، وهو الذي تاب الله عليه وهداه كان هو وذريته يمثلون أمة واحدة لأنهم كانوا محققين العبودية لله عز وجل موحدين له سبحانه، مجتمعين على ذلك لا خلاف بينهم، فكان هذا هو الأصل لبني آدم على ظهر الأرض وهو اجتماعهم على التوحيد وعدم افتراقهم واختلافهم وإشراكهم، وهذا ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن

يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[يونس]، وكلتا الآيتين تدلان على أن الاتحاد هو المبدأ الأول لبني آدم على ظهر الأرض، وأن الاختلاف عارض طرأ على الناس لأسباب متعددة، تَزَعّم ذلك عدو الإنسان إبليسُ، فعندما حدث في الناس الاختلاف ثم الافتراق، ووُجد فيهم غير التوحيد وهو الشرك، عوملوا من ربهم بأن بعث لهم الأنبياء ليعالجوا فيهم أسباب الاختلاف والشرك، حتى يعود الناس إلى توحيد الله والعبودية له سبحانه، ويجتمعوا عليها، فليست هناك أمّة إلا خلا فيها نذير، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]، ومع تعدد وتنوع مظاهر المخالفة للعبودية لله عز وجل في سائر الأمم إلا أنه ليس هناك نبي أو رسول بعث لقومه إلا كانت دعوته لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل]، لقد كان عدد الأنبياء والرسل كبيراً مئة وأربعة وعشرين ألف نبيّ، وثلاث مئة وأربعة عشر رسولاً، بعثوا في السبعين أمّة من بني آدم، كان آخر الرسل رسول الله محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى:

إبليس تزعم الدعوة للشرك والافتراق في بني آدم

مقصود رسالات الأنبياء معالجة ما طرأ على بني آدم من الشرك والافتراق

الدعوة لعبادة الله وحده هو محور المعالجة التي جاء بها الأنبياء لما طرأ على الناس

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[الأحزاب]، وأمته آخر الأمم، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[1]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نكمل يوم القيامة سبعين أمَّة نحن آخرها وخيرها**»[2]، والتكليف للأنبياء جميعًا واحدٌ: معالجة الشرك، ومعالجة الافتراق، وتحقيق التوحيد، وتحقيق الاجتماع، قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[الشورى].

من خصائص دعوة النبي ﷺ أنها للناس كافة

لقد خصَّ اللهُ خاتمَ الرسل رسول الله محمد ﷺ من بين إخوانه من الأنبياء والرسل: أن كلَّفه اللهُ ببلاغ هذا الأمر العظيم للناس كافَّة، وأن لا يقصره على فئة من الناس على ظهر الأرض، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأعراف]، وجعل شريعته هي الخاتمة إلى يوم

(١) رواه الترمذيّ (٣٠٠١)، وحسّنه الألبانيّ.
(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٧٧)، وحسّنه الألبانيّ.

القيامة، فلا رسول بعده ﷺ. فأكملها وأتمَّها الله سبحانه ورضيها، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، فكان الكتاب الكريم القرآن مهيمنًا على كل الشرائع والكتب السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ [المائدة]، قال السّعدي: (﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ أي: مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة، في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي يتّبع كل حقٍّ جاءت به الكتب، فأمر به وحثّ عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه)[1]، فلا علاج يُصلح الناسَ إلا التوحيد والعبودية لله عزَّ وجلَّ، ولا علاج يصح ويجوز عرضه لإصلاح الناس إلا التوحيد والعبودية لله عزَّ وجلَّ، ويعلمنا ذلك أن مقصود الشارع الحكيم: الاجتماع على التوحيد والعبودية لله عزَّ وجلَّ، وعدم الاختلاف. وهذا ما أخبر الله عنه قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله هو الإسلام، وأصل الإسلام التوحيد والعبودية لله عزّ وجلّ، ولقد

القرآن مهيمن على جميع الكتب قبله

الأمة المحمدية كلفت بتبليغ دعوته بعد وفاة رسول الله ﷺ

(١) تفسير السعدي (٢٣٤).

كلفت هذه الأمة بعد رسولها بحمل المهمة العظيمة التي أنيطت به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[يوسف]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾[آل عمران]، فيتلخص مما سبق:

- أن الأصل في بني آدم الاجتماع على التوحيد، وأن الشرك والافتراق والاختلاف طارئ عليهم.
- أن كل نبي وكل رسول دعا قومه للعبادة لمعالجة ما طرأ عليهم من الاختلاف والشرك، مهما كانت صورة المخالفة.
- أنه لا طريق لإصلاح الناس إلا بالدعوة لعبادة الله عزّ وجلّ بمفهومها الشمولي كما سبق تفصيله.
- أنه لا يصح ولا يجوز لنا أن نتعامل مع الشرك والاختلاف على أنه أصليٌّ، مهما بلغت كثرة أتباعه وتمكنه في الأرض.
- أن إصلاح أنفسنا وفق مفهوم العبودية الشمولي واجتماعنا عليه: هو الذي نقدمه للناس بعمومهم، وهو الذي يضبط تعاملنا مع المخالفين، وهو

الطريق الوحيد الذي يبقينا في دائرة أمّة الخير، وهو أحد الطرق التي تقوم بها الحجة على الكافرين.

- أن التواصل مع المخالفين لأجل إبلاغهم عبادة الله، وجمعهم عليها مطلبٌ شرعيٌ رئيسٌ، ومقصودٌ للشارع الحكيم يحبه ويحب أهله، ويبقينا أيضًا في أمّة الخير الشاهدة على الناس، وهو الطريق الرئيس لإسقاط تبعة التكليف بالبلاغ المبين، وإقامة الحجة على الكافرين.

- الغاية من خلق الإنسان أن يتديَّن لله بما جاءته به الرسل من دين.

- بعد بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يصح التدين لله عزَّ وجلَّ إلا بشريعته التي جاء بها من عند ربه سبحانه وتعالى.

الوحي وحدة متكاملة

إن المتأمل في شريعة الله عزَّ وجلَّ يجدها وحدة متسقة، منتف عنها الازدواجية والاختلاف، على كثرة التفريعات والجزئيات التي تحكمها الشريعة، وهذا يتفق وطبيعة الحياة الإنسانية، فهي متداخلة الدوائر، متبادلة التأثير.

إدراك الصورة الكلية الشرعية ضرورة لوضع خطط المعالجات

وعليه عند وضع المعالجات الشرعية لأي مجتمع لا بدّ من الانطلاق من إدراك هذه الوحدة التكاملية، فالأحكام الفرعية تُفهم في ظل هذا الكلّ. وهكذا تعالج المشكلات التي نواجهها وَفق رؤية كلية، فالمنحى العلاجي التجزيئي القائم على تصور جزء محدود من الشريعة وتقديمه على أنه المشروع الشرعي لإصلاح الناس غير صحيح، كمن يقدم المشروع الجهادي على أنه هو المشروع الإسلامي الوحيد لنجاة الأمة اليوم، أو كمن يقدم الأسلوب الدعوي الوعظي فحسب، على أنه هو المشروع الإسلامي الوحيد لنجاة الأمة اليوم.

وبناء الفقه بهذه الطريق له مشكلات كثيرة في تشويه الطريقة الشرعية في معالجة المشكلات القائمة، قال الإمام الشاطبيّ وهو يعرض لمسار المبتدعة وأخطائهم: (ومدار الغلط

في هذا الفصل إنّما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشريعة، وعدم ضمّ أطرافه بعضها إلى بعض، فإنّ مآخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنّما هو على أن تأخذ الشريعة كالصورة الواحدة، بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامّها المرتب على خاصّها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسَّر ببيِّنها، إلى ما سوى ذلك من مناحيها ... وما مثلها إلا مثل الإنسان الصحيح السوي، فكما أن الإنسان لا يكون إنسانًا حتى يستنطق فينطق، لا باليد ولا بالرجل ولا بالرأس وحده، ولا باللسان وحده، بل بجملته التي سُمّي بها إنسانًا، كذلك الشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها، لا من دليل منها، أيّ دليل كان ... فشأن الرّاسخين في العلم تصورُ الشريعة صورةً واحدةً يخدم بعضها بعضًا، كأعضاء الإنسان إذا صُوِّرت صورةً متّحدة)[1].

ضوابط خطط الإصلاح

فبناء على ما سبق نحتاج إلى ضوابط تحكم لنا سلامة أيّ خطة تغيير نضعها، وَفق التأصيل الشرعي السابق، فمن هذه الضوابط ما يلي:

١. وجود تصور شرعي للكليات الجوامع حتى تُضبط خطة التغيير (وهذا ما تمثله هذه الدراسة في جزئها الأول).

---

(١) الاعتصام (١/ ٣١١-٣١٢)

٢. تحديد القضية المراد معالجتها، وبيان مكانتها في التصور الكلي (وهذا ما يأتي بيانه).

٣. اتصاف خطة التغيير بالواقعية، والمقصود بها: وضع مكونات الخطة في نظم وطريقة تُظهِرُ قدرتها على معالجة الوضع الواقعي المقصود إحداث التغيير فيه، وتُظهِرُ قدرة المخاطبين على تنفيذه.

٤. التكامل، ونقصد به صياغة خطة التغيير بما يراعي التكامل بين الجهات المؤثرة، درءاً لانعكاسات سلبية في جهات غير حاضرة في الخطة وبرنامجها، فيضمن التكامل ما يلي:

أ- وضع تصور واضح للقضية الكلية القائم عليها خطة التغيير، أي ما ارتبط بها من معتقدات وعبادات وأخلاق ومعاملات، والمنهيات الواجب تركها.

ب- صياغة الأعمال في إطار المبادئ العقدية، والأصول الأخلاقية.

ت- سلامة التكامل بين ميادين العمل (عمل الفرد، الناس، المكان، الأنظمة الحاكمة لحركة الناس).

٥. التوازن، ونقصد به تحقيق التوازن للمقومات الفطرية الغريزية التي خلق الله الإنسان عليها، فتتضمن ما يلي:

أ- التوازن بين الجوانب النفسية والجوارح من حيث التكليف والقدرة.

ب- التوازن بين مصالح الفرد والجماعة، فلا يطغى أحدهما على الأخر بما يفقد التوازن في خطة التغيير، فضلاً عن أن تتجه الخطة إلى إلغاء أحد المصلحتين على حساب الأخرى.

ت- التوازن بين عنصر العقل ومنطقيته مع عنصر الأحاسيس والعواطف النفسية.

ث- التوازن في تحصيل المنفعة الدنيوية القريبة بما لا يخل بتحصيل المنفعة الأخروية، باعتبارها هي الأصل في المجازاة.

إنّ الإشباعَ الغريزي باللذة مطلبٌ لا بدّ من مراعاته والتنبّه له، وذلك لما كان الإنسان يعمل بقوة الحبّ، متجهًا نحو المحبوب فتحصل له اللذة عند تحصيله. ومتجه بنفس القوة نحو دفع المبغوض الحاصل له الألم عند وقوعه واللذة عند اندفاعه. وأنواع الملاذ المطلوب إشباعها ثلاثة[1] ؛ لأنه ليس

(١) قال شيخ الإسلام: (واللذات الموجودة في الدنيا ثلاثة أجناس: فجنس للجسد تارة كالأكل والنكاح ونحوهما مما يكون بإحساس الجسد، فإن أنواع المأكول والملبوس يباشرها الجسد. وجنس مما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره كالمدح له، والتعظيم له، والطاعة له، فإن ذلك لذيذ محبوب له، كما أن فوات الأكل والشرب يؤلمه، وأكل كل ما يضره يؤلمه، وكذلك فوات الكرامة يؤلمه كما يؤلمه ترك الأكل والشرب، ويؤلمه الذم والإهانة كما يؤلمه الأكل والشرب الذي يضره ...، والجنس الثالث: أن يكون ما يعلمه بقلبه وروحه وبعقله كذلك، كالتذاذه بذكر الله ومعرفته ومعرفة الحق ...، وهذه

من سنة الله في خلق الإنسان أنه خلق فيه قوةً لتُعَطَّل، بل من سننه أنها تُشبَع بمنهجٍ يحقق لها التوازن والمصلحة. وترتيب هذه الملاذ ترتيبًا قياديًا، كما يلي:

أولاً: اللّذة العقلية، والمقصود بإشباعها: تحصيلها للعلم الصحيح الموصل للمنفعة المتيقنة والدّافع للمضرّة المتيقنة، وذلك بما يؤصله الوحي من الحقائق العلمية، وحصول الفرح لدى الإنسان بتحصيله هذا العلم. والترتيب القيادي فيها: أن تكون اللّذة العقلية بما استنارت به من نور الوحي وما فيها من الفطرة السليمة التي لم تحرف بفعل شياطين الإنس والجن، وبما اكتسبته من المعارف من خلال التأمّل في تجارب الآخرين، هي التي تقود ما بعدها من الملاذ وتحكم الإشباع فيها.

ثانيًا: اللذة الحسية، والمقصود بإشباعها إتاحة الإشباع للجوارح من الملاذ المحسوسة التي تلائمها

اللذات الثلاث: اللذات الحسية والوهمية والعقلية. وقد علمتَ أن كل ما خلقه الله في الحي من قوى الإدراك والحركة فإنما خلقه لحكمة، وفي ذلك من جلب المنفعة للحي ودفع المضرة عنه، ما هو من عظيم نعم الله عليه، والله سبحانه بعث الرسل لتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويلها وتغييرها، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، والله شرع من الدّين ما فيه استعمال هذه القوى على وجه العدل والاعتدال، الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة) [قاعدة في المحبة: ١٦-٦٢].

والمشروعة، والمقدور عليها بالطريق المشروع. والترتيب القيادي فيها: أنها تابعة للعقل - المهتدي بالشرع وبالفطرة السليمة - وإرشاداته، لا للنفس وهواها وجهلها وظلمها، فإن انقادت لها كان حالها أقرب إلى الحيوانات.

ثالثًا: اللذة التخيلية: والمقصود بإشباعها إعمالها لتتصور المآلات ممكنة الوقوع والمفرحة، بناءً على الاستجابة للحقائق العلمية التي أصّلها الوحي في العقل، وأن تخلف تلك المآلات لا يكون إلا لقصور في قصد العمل أو صحة أدائه. وكذلك لتصور المآلات البعيدة، أي: في الحياة الآخرة والمفرحة بحصول المفرح من دخول الجنة ورضى الله عزّ وجلّ، وبدفع المبغض والمؤلم فيها، وهو سخط الله والنار. وكذلك بمحاولة استحضار الصورة المشرقة للحياة المهتدية بحقائق الوحي التي عاشها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والأمّة في تاريخها المشرق. وكذلك بتصور المآلات القريبة والبعيدة في الدنيا والآخرة، المؤلمة عند وقوعها في المخالفة لهدى الله. بهذا الإعمال للقوة التخيلية يتحقق الإشباع واللذة الحقيقية لها، ويكون الخيال أسهم في بناء الحقيقة لا الوهم. والشريعة لا تبني

الإنسان على الوهم والخرافة وما لا حقيقة له، وعند إشباع اللذة التخيلية بالوهم الذي لا حقيقة له يعيش الإنسان على حالة قريبة من الجنون أو السطحية والسذاجة على أقل الأحوال، ومن ثم لا يكون مهيئًا لحمل رسالة السّماء، فالانحراف يخرج النفس دنيئة الهمة الضالة عن الطريق الحق.

وبعد هذا التأصيل العلمي؛ فإن الجانب المجتمعي من حياة الناس هو محل العناية في هذه الدراسة، والمَعني بوضع خطة عمل مبنية على هذا التصور العلمي تُسهم في تحقيق إصلاحٍ فيه، ويسبق خطة العمل بيانُ منزلة الجانب المجتمعي في الشريعة لندرك سبب اختياره والبدء به، ثم لمحةٌ عن واقع الحياة المجتمعية اليوم، ثم وضع خطة المعالجة.

منزلة العمل المجتمعي في الشريعة

العمل المجتمعي داخل إطار العبودية لله

لما كان العمل المجتمعي يعني مجموع تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان في كل أنواع التعاملات، وتعامله أيضًا مع بيئته المحيطة به بكل مكوناتها بأي أنواع التعامل، ويدخل فيه ما ينظم تلك الأعمال والعلاقات والتعاملات، وبناء على ما سبق من التأصيل الشرعي العلمي تبيّن أنّ العمل المجتمعي بهذا التوصيف داخلٌ تحت مسمّى العبودية لله التي هي غاية وجود الإنسان، كما أن عمل الفرد الذاتي داخل فيها، إذ يدخل في العمل المجتمعي في النظرة الشرعية تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان في جميع أنواع التعامل، وتعامله مع بيئته وعمارة الأرض سواء كان بحركة ذاتية منه وحده أو بحركة مشتركة مع أفراد آخرين، والحياة تكتنف ذلك كله، والشريعة ترعاه وتنظمه، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، ولما كان العمل المجتمعي هو الميدان المراد إنزال التأصيل العلمي الوارد في هذه الدراسة عليه، والخروج بنموذج قابل للتطبيق يتحقق فيه هذا التأصيل، احتاج الأمر لزيادة إيضاح وبيان مكانة العمل المجتمعي في شريعة الله عزّ وجلّ، وليظهر منها اتِّساع هذا

الميدان، ومدى عناية الشريعة به، وما أثره على حياة الناس أفرادًا وجماعات في الدنيا والآخرة وَفق السنة الإلهية؟ وما هي أصول إصلاح العمل الاجتماعي في الطريقة الشرعية، فنبيِّن ذلك من خلال الفقرات التالية:

أولاً: الحياة المجتمعية والسنن الإلهية:

كل شيء يحدث بسبب

لقد دلّ القرآن الكريم على أنّ كل شيء يحدث بسبب، وأنّ هذا قانون عامّ لكل ما في الكون، ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة، قال ابن تيمية: (فليس في الدّنيا والآخرة شيءٌ إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات)[1].

نظام الحياة قائم على السنن الإلهية

فالله سبحانه: أقام الكون ونظام الحياة على الأخذ بالأسباب، والسعي فيما أمر به سبحانه، وأنّ ذلك هو سنته التي لا تتبدل، فهو نظام يمضي إلى نتائجه حتمًا بإذن الله تعالى، ولا تستطيع قوة مهما كانت أن تقف في مساره، قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: (دليلٌ على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٠).

لا بقضاء مخالف ...، فإنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول)[1]، فالأفراد والأمم في جميع أحوالهم يخضعون لهذه السنة الإلهية في سعادتهم وشقائهم، في عزّهم وذلّهم، في علوهم وانخفاضهم، في بقائهم وهلاكهم في رغد العيش وشدته، في اجتماعهم وافتراقهم، وعليه؛ ندرك أنه لا مجال للصدفة أو العبث.

ارتباط الحياة المجتمعية بالسنن الإلهية

إنّ لفظ سنة ورد ستة عشر مرّةً في القرآن الكريم، احتوى هذا العددَ عشرُ سور مباركات، ولكن ما يستحق التأمّل والتدبّر: أن كل هذه المواطن التي ذُكر فيها لفظ السنة نجد أنها متصلة بالسنن الاجتماعية، ونقل ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام قوله: (فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها. وفي قوم عاد - مع الشرك - التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش، وقولهم: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وفي أصحاب مدين - مع الشرك - الظلم في الأموال. وفي قوم فرعون - مع الشرك - الفساد في الأرض والعلو، وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذَّب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيءٌ. وعذَّب قوم لوط بأنواع من العذاب، لم يعذِّب بها أمّةً غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك، والرجم بالحجارة من

(١) جامع الرسائل (١/ ٥٤-٥٥).

السماء، وطمس الأبصار، وقَلبَ ديارِهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسفِ بهم إلى أسفل سافلين. وعذَّب قوم شعيب بالنّار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان. وأمّا ثمود؛ فأهلكوا بالصيحة، فماتوا في الحال. فإذا كان عذاب هؤلاء وذنبهم مع الشرك عقرُ الناقة التي جعلها الله آيةً لهم؛ فمن انتهك محارم الله، واستخفَّ بأوامره ونواهيه، وعقر عبادَه، وسفك دماءَهم، كان أشدّ عذابًا. ومن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حقٍّ، وأقام الفتن، واستهان بحُرُمات الله؛ علم أنّ النجاةَ في الدُّنيا والآخرة للذين آمنوا، وكانوا يتقون)[1].

صفات السنن الإلهية:
* ثابتة
* مطردة
* عامة

فعدم معرفتنا للسنة الإلهية الحاكمة لكل ما يجري في الدّنيا لا يعني وجود الصدفة، وجهلنا بالسنن الإلهية لن يكون مبررًا لوقف عملها معنا، فهي سنن:

- ثابتة لا تتغير.
- ومطردة لا تتخلف.
- وعامّة يحاكم عليها كل أحد دون محاباة أو تمييز.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٧).

قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ ﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ ﴾ [المائدة].

عدم تعلم السنن الإلهية انحراف في البناء وسبب للعقوبة

إنّ التاريخ يمثل بحقٍّ مختبرًا صادقًا لسنن الله في المجتمعات، والله سبحانه عرض لنا ذلك من خلال القصص القرآني، فما تضمنته مادة القصص القرآني أعطت دلالة واضحة بأن القصص القرآني من أغزر موارد السنن الإلهية في القرآن؛ إذ يبيِّن فيها كيف سقطت المجتمعات والأمم، وكيف انهارت الحضارات، كيف دُمِّرت المدن والقرى؟ كيف تشتت المجتمعون؟ وكيف ذلّ وهان الأعزاء؟، وما أكثر ما يكون التعقيب عند ذكرها بأخذ الاعتبار والعظة، قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ ﴾ [الأعراف].

قصص الأنبياء هي المورد الأساس لمعرفة السنن الإلهية

إنّ من الملفت لنظر المتأمّل في القصص القرآني: أنه يجد أن القصص القرآني أغلبه في القرآن المكيّ، حتى عُدّ ذلك

إحدى السِّمات الرئيسة للقرآن المكيّ[1]، فورد ذكر نبيّ الله نوح عليه السلام وذكر قصته مع قومه في عشرين سورة مكيّة، وورد ذكر نبي الله هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وذكر قصته في ست عشرة سورة مكية، ووردت قصة نبي الله صالحٍ عليه السلام مع قومه في تسع عشرة سورة مكية.

الأنبياء يذكرون أقوامهم بالسنن الإلهية

إنّ آيات القرآن التي احتوت قصص الأنبياء مع أممهم بيّنت أن طريقة الأنبياء مع أممهم في دعوتهم هي تذكيرهم بأيّام الله وقصص من سبقهم وما فيها من السنن، قال الله تعالى عن نبيّ الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا اللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى على لسان هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال الأمين الشنقيطيّ: (قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾، أي: في الأرض في عافية وطمأنينة ورفاهية من الدنيا

---

(١) قال السيوطيّ: (وأخرج البيهقيّ في الدّلائل من طريق: يونس بن بكير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كلّ شيءٍ نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون فإنّما نزل بمكة) [الإتقان ١/٢٣. وانظر: البرهان في علوم القرآن ١/١٨٨-١٨٩].

من بعد قوم نوح. والآية تشير إلى تهديد. يعني: كما أن قوم نوح لمّا كذّبوا نوحًا دمّرهم الله وأهلكهم، وجعلكم خلفاء في الأرض من بعدهم؛ فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، لئلا يهلككم، ويجعل خلفاء الأرض بعدكم غيركم)[(1)].

وقال تعالى عن نبيّ الله صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يعظ قومه قائلاً: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف]، وقال تعالى عن نبيّ الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى عن نبي الله شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود].

أتباع الأنبياء يُذكِّرون بالسنن الإلهية

وذكر القرآن أنّ التذكير بالسنن الإلهية من خلال قصص الأمم مع أنبيائهم هو طريق أتباع الرسل أيضًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر].

---

(1) العذب النمير (١٣٣٢).

رسول الله ﷺ يذكر بالسنن الإلهية

أمّا رسول الله ﷺ؛ فسار على طريق إخوانه من الأنبياء مستجيبًا لأمر الله له بذلك، قال تعالى موجّهًا رسوله لتذكير الناس بقصص الأنبياء مع أممهم وما فيها من السنن، وأخذ العبرة منها؛ لأنهم سواء في تحاكم حياتهم في الدّنيا إلى تلك السنن التي حوكمت إليها حياة من سبقهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾ [الروم]، وكلّها سور مكية.

من عدل الله إعلام الناس بقانونه الذي يحاكمهم عليه

فهي دلالة واضحة على أهمية علم السنن الإلهية، والبدء به إدراكًا وفهمًا، ثم اتّباع ما تضمنه من حقائق، وهذا من كمال عدل الله سبحانه وهو إعلام الناس بقانونه ونظامه الذي يحاكم عليه الناس في هذه الدنيا فالعدول عن تعلم السنن الإلهية في نظام الحياة المجتمعية، وعدم التقيد بها عند البناء المجتمعي، ومحاولة البحث يمنة ويسرة عن أسباب النجاة أو النجاح أو الخروج من المأزق أو الارتفاع عن الخسارة الاقتصادية أو

معرفة موقف الناس من السنن الإلهية أساس طريق الإصلاح

تحقيق الأمن أو الاجتماع والائتلاف دون الرجوع إلى معرفة السنن الإلهية في القرآن، إنه نوعٌ من العبث والجهل كمن يطلب الماء بنحت الصخر، وهو موجود بين يديه وأمام عينيه، فالإعراض عن تعلم السنن الإلهية الشرعية المجتمعية سببٌ رئيسٌ في التأخر الحضاري للمجتمع، وعنوان الضياع والتشتت والدخول في المعاناة، ومن ثم العقوبة الإلهية، بل هو بناء للحضارةِ السريعةِ الزَّوال، المعرضة للعقوبة(١). ولا بدّ أن نعلم وبجلاء: أن العلم بالسنن الإلهية، والتعامل معها بجدية هو الذي وضع المجتمع المسلم - في تاريخه المشرّف - في مكان الصدارة.

(١) قال أبو حامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة: (وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء؛ فهو العلم بالله تعالى وبصفاته، وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه، بقدر ما يُسِّر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم) [الإحياء:١/٣٩].

وقال رشيد رضا معقبًا على قول الغزالي: (أما العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله فهو معراج الكمال الإنساني، وأما العلم بسنته تعالى في خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني: أنه أعظم الوسائل لكمال العلم الذي قبله، ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدّالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى بلوغ كمال الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعًا، وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في فطرته وهداية كتابه) [تفسير المنار ٧/٥٠٠].

فالقرآن يرد المسلم إلى الأصول والنواميس التي تحكم الحياة، وإن القرآن العظيم بما فيه من الهدى بصّر الناس بما يحكم هذا الكون وحركة الناس فيه من سننٍ ثابتةٍ ومطردة لا تتخلف. فقدَّم القرآن للناس خلاصةَ ما حدث على الأرض، مُمثلا ذلك في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما حصل بينهم وبين أممهم، وكيف زالت تلك الأمم واندثرت حضارتهم المادية، **لقد أعطى عرضُ تلك النماذج حقيقةً يقينيةً واضحةً: أن لتاريخ الإنسان على الأرض قانونًا كليًا يحكم حركته، هو: السنن الإلهية. وأن لهذا العرض المبهر للتاريخ ثمرةً رئيسةً، وهي: الاعتبار، والعظة أنّ هذه السنن تحكم جميع المجتمعات كبرت أم صغرت.**

العظة والاعتبار أعظم ثمار دراسة السنن الإلهية

إنّ المتدبر للقرآن العظيم وهو يخبر عن هلاك الأمم السابقة يجد أنه يخبرنا بوضوح أن السبب الأصيل في هلاكها: هو اتّصافها بالظلم بمعناه العام، وهو: وضع الشيء في غير موضعه، فيدخل فيه أنواع الظلم الثلاثة:

الظلم سبب رئيس في هلاك الأمم

أنواع الظلم

أ- ظلمٌ بين الإنسان وربّه تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان].

ب- ظلم بين الإنسان والناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾ [الشورى].

ج- ظلم بين الإنسان ونفسه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر].

قال الله تعالى مخبراً أنّ هذه سنته في هلاك الأمم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

قال ابن عطية: (وقوله ﴿ظالمة﴾ أعمّ من كافرة، وقد يمهلُ اللهُ تعالى بعضَ الكفرة، وأمّا الظلمة - في الغالب - فمعجلون)[1].

العدل أساس الأمن في الدنيا

قال ابن تيمية: (أمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر ممّا تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا

(١) المحرر الوجيز (٣/٢٠٦).

قيل: إنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها خلاق - أي: في الآخرة -. وإن لم تقم بالعدل لم تدم، وإن كان لصاحبها مع الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[1].

الظلم المجتمعي سبب رئيس في سرعة الإهلاك

وهذا أحد القولين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾ [هود]، أي: إنّ الله لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها فقط، وهم يتعاطون الحقّ فيما بينهم، ويحسنون معاملاتهم، وإنما ينزل عليهم عذاب الاستئصال إذا أساءوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم، أي: أنّ الله سبحانه يأخذ القوم بالإفساد الاجتماعي، وإشاعة الشرور أسرع ممّا يأخذ بالكفر والإشراك به، وإذا جمعوا بين الشرك والظلم والفسوق في حياتهم ومعاملاتهم؛ فالاستئصال أسرع وأسرع[2]، وهذا من أعظم البيان في أهمية الجانب المجتمعي، وأثره ومنزلته في شريعة الله.

---

(١) رسالة الأمر بالمعروف (٤٠).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٩/٧٦)، معالم التنزيل (٣/٢٥٠)، تفسير الواحدي (١/٥٣٦).

أمة الرسول ﷺ مرحومة من عقوبة الاستئصال

ولقد اختصّ الله سبحانه الأمّة الخاتمة بالأمنِ من عقوبة الاستئصال إكرامًا لرسول الله محمّد ﷺ الذي دعا ربّه بذلك، فأعطاه الله إيّاه، قال ﷺ: «**إنّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألتُ ربي لأمّتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتَهم، وإن ربّي قال: يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاءً، فإنّه لا يُردُّ. وإنّي أعطيتُك لأمّتك أن لا أهلكهم بسَنة عامة، وأن لا أسلطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها - أو قال: مِن بين أقطارها - حتى يكون بعضُهم يهلكُ بعضًا، ويَسبي بعضُهم بعضًا**»[1]، فبحقٍّ هو ﷺ - كما أراده ربّه - رحمةً للناس ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

بقاء الأمة على الإسلام، وعدم الاجتماع على الفساد سنة قدرية في أمة محمد ﷺ

فهذه الأمّة المرحومة المباركة لا يهلكها الله بعذاب الاستئصال؛ لأنها لا تُجمِعُ على الكفر والفساد في الأرض، بل يبقى الخيرُ فيها، قال ﷺ: «**لا تزال من أمّتي أمّةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[2]، فما أكرم المؤمن الصالح على

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).
(٢) رواه البخاريّ (٣٦٤١) واللفظ له، ومسلم (١٩٢٠).

ربّه، وما أعظم بركته على الناس جميعًا، وإنّ ارتباط هذا الأمر القدري (أنها لا تُجمع على الكفر ولا على الفساد) أعظم ما يكون ارتباطه بجزيرة العرب، قال ﷺ: «**إنّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**»[1]، فلا تعود الجزيرة وأهلها إلى الشرك فيطبقون عليه كما كان الحال قبل بعثته ﷺ، فهذا من الأمن القدري الذي أكرم الله به جزيرة العرب، وأعظم ما يكون في جزيرة العرب ارتباطه بالحجاز، قال النبيّ ﷺ: «**إنّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرِزُ بين المسجدين كما تأرز الحيّةُ في جحرها**»[2].

مكة تبقى دار الإسلام إلى يوم القيامة

وأعظم ما يكون في الحجاز ارتباطه بمكةَ بيتِ الله الحرام، وبالمدينة النبوية على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام، فهما محفوظتان من أعظم فتنة على دين الناس، وهي فتنة المسيح الدّجال، قال ﷺ: «**ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدَّجال، إلاّ مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقبٌ إلا عليه الملائكة صافّين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيُخْرِجُ الله كلَّ كافر ومنافق**»[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٢).

(٢) رواه مسلم (١٤٦).

(٣) أخرجه البخاريّ (١٨٨١)، ومسلم (٢٩٤٣).

ومكة شرّفها الله أخبر النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّها لا تُغزى إلى يوم القيامة، فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة: «**لا تُغزى هذه بعدها أبدًا إلى يوم القيامة**»[١]، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم الفتح: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»[٢].

قال ابن حجر: (في الحديث بشارة بأنّ مكة تبقى دار إسلام أبدًا)[٣]، بمعنى: أنه لا يعود أهلها كفّارًا فيحتاج أهل الإسلام إلى إعادة فتحها، أو أنها لا تغزى من قبل الكفار، فسيبقى أهلها أهل الإسلام، فالحمد لله على منته وفضله، وعلى كلا الأمرين: إن مكة ستبقى دار الإسلام وأهلها أهل الإسلام، فمكة أمانٌ لأهل الأرض كلهم بهذا الاعتبار؛ وجودِ المؤمنين فيها إلى أن يأذن الله بهلاك الدنيا.

أصول هداية الدلالة

وإنّ مفتاح الأمان من الاستئصال وبقاء الناس على الإسلام جعله الله في أمور ثلاثة، هي أصول تحقيق الهدى للناس، حفظها الله لهم، فبقائها يبقى أهل الإسلام على الإسلام؛ لأنها تدلهم وترشدهم إلى الإسلام، فهي معالم الهدى التي وضعها الله للناس، وسوف يؤتى بها يوم القيامة لتقدم شهادتها أمام الله سبحانه وتعالى.

(١) رواه أحمد (١٩٢٠)، وصححه الألبانيّ.
(٢) رواه البخاريّ (٢٧٨٣) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٣).
(٣) فتح الباري (٦/٣٩).

القرآن هدى

أولها: القرآن، وهو الأصل لما بعده، فلولا منّة الله به لما حصل هدى للناس، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف]، ولذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق يَرتجز قائلاً:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا(1)

والله سبحانه قد سمَّى القرآن هدىً، ووصفه بالهدى، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

القرآن شاهدٌ يوم القيامة

وقد تكفّل الله بحفظه ليبقى مصدر هدى للناس، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] ويأتي القرآن يوم القيامة ليقدم شهادته على الناس وموقفهم منه، فعن النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»، وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «**كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**»(2).

(1) رواه البخاريّ (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٢).
(2) رواه مسلم (٨٠٥).

النبيّ ﷺ يهدي

ثانيها: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، وسنّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مماته، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى]، وحفظها داخل في حفظ القرآن، لأنها مبيّنة له، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشهد على أمته، قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٖ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١﴾ [النساء: ٤١].

النبيّ ﷺ شاهدٌ يوم القيامة

الكعبة هدى

ثالثها: الكعبة، وهو المكان الذي رُبط به شعائر الدين العظيمة الصلاة والحج، وفيه الآيات البينات الدالة على وحدانية الله، وكون هذا المكان هدى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران]، فدين الناس باقٍ ما بقيت الكعبة، ولذا ذكر الله في القرآن أن الكعبة قيامٌ للناس، قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧]، وهذا معنى ثانٍ جُعِل في مكة لتكون أمانًا لأهل الأرض، فهي أمان لهم ببقائها دار إسلام، وأهلها أهل الإسلام كما سبق، ولن تستأصل الأمّة وفي مكة مسلمٌ، وهي أمان أيضًا بوجود الكعبة فيها وبقاء بنيانها، وهو لا يسقط حتى يأذن الله بالهلاك للعالم كلّه، ولا يشارك مكة في هذا سائر بلاد الدنيا أنها أمان للناس بأرضها وأهلها، ويوم القيامة يقوم الركن منها مقام الشهادة على الناس، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليأتين هذا الحجر يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من يستلمه بحق**»(١).

الحجر الأسود شاهدٌ يوم القيامة

(١) رواه أحمد (٢٢١٥)، وصححه الألباني.

فإذا رُفِع القرآن ومُحي من المصاحف، وهُجِرَت السُّنة ونُسيت، وسقط بناء الكعبة، وعاد الحجر الأسود من حيث جيئ به، فزالت أصولُ هداية الدّلالة للناس، عمّ الناسُ الضلالَ والكفرَ، وعليهم تقوم السّاعة، قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض اللهُ الله**»[1].

الأمة الإسلامية تعاقب بسبب مخالفتها لهدى الله

ممّا سبق ندرك أنّ هذه الأمة المرحومة إنّما يكون هلاكها العام عند قيام الساعة التي يهلك البشر كلهم فيها، فإذا جاء وقت السّاعة بعث اللهُ ريحًا باردةً فتقبض أرواح المؤمنين، فلا يبقى على ظهر الأرض إلاّ كافر، فإذا عمّ الناس الكفر، وذهب أهل الإيمان، فعلى هؤلاء تقوم السّاعة، ولكن لا يعني نجاة هذه الأمّة من سنة الاستئصال أنّ الأمة أصبحت بمنأى عن أي عقوبة إلهية بسبب ما تقترفه من مخالفات لهدى الله عزّ وجلّ، لقد جاء النصّ الشرعي المخبر: أن هذه الأمّة تعاقب في الدّنيا، ويقع فيها العذاب، ولكن دون عقوبة الاستئصال، فيصيبُ هذه الأمّة من جنس ما أصاب الأمم الهالكة، ولكنه لا يصل بها إلى الاستئصال، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام].

(١) رواه مسلم (١٤٨).

الفساد الاجتماعي وظهور الخبث أعظم أسباب العقوبات في هذه الأمة

والنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنه يكون في هذه الأمّة خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ، وكثيرًا ما ربط السبب في تلك العقوبات العامة بفساد اجتماعي وظهور الخبث، ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليبيتنّ أقوام من أمّتي على أكل ولهو ولعب، ثم ليصبحنّ قردة وخنازير**»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكون في آخر هذه الأمّة خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ**»[(٢)].

وعن زينب ابنة جحش رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها. قالت زينب ابنة جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[(٣)].

قال ابن بطال: (فإذا ظهرت المعاصي ولم تُغير، وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة

---

(١) رواه الطبراني في (الكبير ٧٩٩٧)، وصححه الألبانيّ.

(٢) رواه أحمد (٦٥٢١)، والترمذيّ (٢١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٦٠)، وصححه ابن حبّان (٦٧٩٥)، والحاكم (٨٣٧٦).

(٣) رواه البخاريّ (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

والهـرب منـها، فـإن لم يفعلـوا فقـد تعرضـوا للـهلاك، إلا أن الهلاك طهـارة للمـؤمنين ونقمـة علـى الفاسـقين، وبهـذا قـال السلف)[1].

وهذا النّص صريحٌ في ربـط عقوبـات عامّـة لخلـل وفسـاد مجتمعيّ وقع فيه النّاسُ.

القرآن والسـنة مصـدرا بيـان السنن الإلهيـة

وسوف أذكر عدداً من السنن الإلهية التي وردت في القـرآن الكريم ولها ارتباطٌ واضحٌ بالحيـاة المجتمعيـة، وهـي ذات أثـر في عمران الأرض، وتحصيل أسباب اسـتمرار الحيـاة بالنسـبة للأمم والمجتمعات، فمنها:

سـنة الله في الظلـم والظـالمين

١. سنة الله في الظلم والظالمين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود].

٢. سنة الله في اتِّباع هداه والإعراض عنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه].

سـنة الله في الاخـتلاف والمخـتلفين

٣. سنة الله في الاختلاف والمختلفين، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران: ١٠٣]،

(١) شرح صحيح مسلم لابن بطال (٦/١٠).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» [رواه البخاري (٢٤١٠)].

سنة الله في الطغيان وبطر النعمة

٤. سنة الله في بطر النعمة والترف والطغيان بسبب النعمة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء].

سنة الله في الغلظة وفي الرفق

٥. سنة الله في الفظاظة والغلظة والرّفق، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران].

ومن السنن الإلهية أيضًا على وجه الإجمال:

١. سنة الله في التمييز والتفاضل بين البشر.

٢. سنة الله في النصر والتمكين.

٣. سنة الله في التنازع بين الحقّ والباطل.

٤. سنة الله في الرزق للعباد.

٥. سنة الله في النعم وتغييرها.

٦. سنة الله في الترف والمترفين.

٧. سنة الله في طلب الدنيا والآخرة.

٨. سنة الله في تزكية النفوس(١).

إدراك السنن الإلهية أعظم طرق إصلاح المجتمع

إن هذا العدد الكبير من السنن الإلهية ليعطي دلالة واضحة على مكانة الإصلاح الاجتماعي في الشريعة. وإنّ إدراك السنن الإلهية وجعلها محور الإصلاح المجتمعي من أعظم وأهم معالم الطريقة الشرعية في إصلاح المجتمع(٢)، ولقد ذكر الله لنا في القرآن نماذج ممّن استدل بالسنن الإلهية واتخذ موقفه وَفقها، من ذلك: ما ذكره الله عن طالوت وجنوده المؤمنين الذين أدركوا سُنّة النصر على العدو مع قلّة عددهم في مقابل كثرة عدد عدوهم، وعلموا أن السنة مرتبطة بالثّقة في الله عزّ وجلّ والثبات عند اللقاء، واللجأ إلى الله بالدّعاء، فعندما فعلوا وَفق ما تمليه عليهم السنة الإلهية تحقق لهم النصر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ

---

(١) انظر: موضوع السنن الإلهية: السنن الإلهية في الأمم والأفراد، للدكتور مجدي عاشور. السنن الإلهية في الأمم والجماعات، للدكتور عبد الكريم زيدان، فقد أفدت منهما في هذا الفصل.

(٢) قال رشيد رضا: (لم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة، كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن الكريم والحديث من سنن الله تعالى في الأمم! والجمع بين النصوص التي وردت في ذلك، والحث على الاعتبار بها، ولو عُنُوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام، وقواعد الكلام، لأفادوا الأمّة بما يحفظ دينها ودنياها. وهو ما لا يغني فيه التوسع في دقائق مسائل النجاسة، والطهارة، والسَّلَم، والإجارة، فإن العلم بسنن الله في عباده لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طُرُقه ووسائله) [تفسير المنار ٧/٤٩٩-٥٠٠].

مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ
لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

[البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١].

وبعد هذا الكلام عن السنن الإلهية الشرعية أليس الانطلاق فيها لإصلاح كل حراك اجتماعيّ هو طريق العقلاء المعتبرين بموعظة ربّ العالمين!! فهل يكون لنا بهم قدوة ؟!!

إن الانطلاق في الإصلاح الاجتماعي من خلال السنن الإلهية يجمع فكر العاملين ويصونه عن التشتت ويوقفهم على الأسباب المتيقنة في إصلاح المجتمع أو هلاكه، ويجعل لهجتهم صادقة حين يذكرون الأسباب والنتائج المترتبة عليها ويختصر لهم طريق المعالجة، فلا تردد ولا وهم وظنّ لمن يعالج المجتمع وفق السنن الإلهية.

ثانيًا: الدعوة لمكارم الأخلاق من أول ما نزل في القرآن:

مكارم الأخلاق هي مرتكز الحراك المجتمعي

إذا تأملنا الوحي فإنّنا نجد أن أول ما نزل فيه، وخوطب به الناس خطاب الإلزام والتكليف بتحمل المسؤولية على وجه

الإجمال والتفصيل: الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق. فالتوحيد يتقرر به أمران عظيمان:

القرآن المكي جلّه يتحدث عن التوحيد وعن مكارم الأخلاق

الأول: وحدة المرجعية القائمة على الإيمان بأن الله صاحب الأمر والتدبير. والثاني: توحيد الله سبحانه في صرف العبادة له بما شرعه هو سبحانه، فيتحقق بهما صلاح التفكير وصلاح الاعتقاد، ومكارم الأخلاق هي القوام الرئيس لإصلاح النفس، وهي أيضًا القوام الرئيس للحراك المجتمعي، وعليها يقوم النظام المجتمعي، وانتظامه يكمل بقدر غلبة مكارم الأخلاق على عموم الأفراد في المجتمع، قال ابن القيم رحمه الله، وهو يتكلّم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه جمع بين الإيمان وحسن الخلق، فقال: (لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وربّه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبّة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبّته)[1].

وفي ذلك دلالة واضحة للترابط بين العقيدة والأخلاق، فالأخلاق كانت الترجمان العمليّ الأول للتوحيد، هكذا أرادها الله، فمكارم الأخلاق هي نظامه الأول الذي شرعه للناس لينظم حياتهم، فخضوعهم له هو تسليمٌ بوحدة المرجعية وهو تحقيق التوحيد العمليّ، وهو: عبادته سبحانه بما شرع، وهو

(١) الفوائد (٧٤-٧٥).

فقد الإيمان وفقد مكارم الأخلاق يوجدان حراكًا مجتمعيًا فاسدًا

المجتمع الخاضع لشرع الله، لقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان والحراك المجتمعي القائم على الأخلاق، ففقدُ الإيمان وفقد مكارم الأخلاق يوجدان حراكًا مجتمعيًا منحرفًا، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة]. وكثيرًا ما يجمع في القرآن بين الإيمان والعمل الصالح المبني على مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد]، وكلٌ من السورتين مكيّة، والنبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بيّن مدى الارتباط بين الأخلاق والدين والإيمان وأنّه لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فعن أنس ابن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: ما خطبنا نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلا قال: **«لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»**[(١)]، فجعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الأمانة والعهد ركنين من أركان الدين والإيمان، وعند عبد الرزاق[(٢)]، والبيهقي في (الشعب)[(٣)] من حديث الحسن البصري مرسلاً، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«لا يغرنّكم صلاة امرئ ولا صيامه، من شاء صام ومن شاء صلى؛ ولكن لا دين لمن لا أمانة له»**.

---

(١) رواه أحمد (١٢٣٨٣)، وصححه الألباني.

(٢) المصنّف (١١/١٥٧).

(٣) شعب الإيمان (١/٦٤).

وفي هــذا دلالــة واضــحة علــى عناية الشــريعة بــالأمر المجتمعــي، ودلالــة علــى أن صــلاحه متحقــق ببنــاء النظــام الأخلاقي الذي جاء به القرآن العظيم، عن ابن عبـاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: لمـا بلـغ أبـا ذر مبعـث الـنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قـال لأخيـه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي هذا الرجـل الـذي يـزعم أنّـه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني. فـانطلق الأخ حتى قدمه وسمع مـن قولـه، ثم رجـع إلى أبي ذرٍّ، فقـال له: رأيته يـأمر بمكـارم الأخـلاق، وكلامًـا مـا هـو بالشـعر ... الحديث[(١)].

إن هنا أمرٌ عظيمٌ ومهمٌ جدًّا، محل التدبر والتأمل، منه انطلقنا بعد فهمه في وضع النموذج العملي للتصور العلمي السابق، وهو: أن القرآن المكي تضمن ذكر السنن الإلهية في معاملة البشر، تجلَّى ذلك من خلال القصص القرآني، فتبيّن أن لله سننًا ثابتةً، يعامل عليها الناس، وأنّه سبحانه يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، بدون محاباة، ولا تردد، ولا عجز، ولا ضعف عن التنفيذ. وأمرهم أمر تحذير بأخذ العبرة، والسير في الأرض، والنظر بعين البصيرة، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(١) رواه البخاريّ (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤) واللفظ له.

[النمل]، وقال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وكلها آيات في سور مكية، فإدراكها والاعتبار بها دليل الوعي السليم، والاستبصار الموفق، ولا شكّ أن من قَبِلَ قلبُهُ ذلك، سوف يجد نفسه أمام قضية عظيمة، فيكون أول ما يتبادر إلى الذهن ما المخرج؟ وكيف الطريق لتحقيق المأمن وتفادي النتائج المؤلمة المرتبطة بتلك السنن في جانب العقوبة والهلاك؟ وما الطريق لحصول مقتضاها من السعادة ورغد العيش ومرضاة الله سبحانه وتعالى؟

الدعوة للتوحيد ومكارم الأخلاق طريق في مقابلة السنن الإلهية

إن تأخير البيان عن وقت الحاجة ليس من طريق الوحي في البيان، والواجب الذي ورد في القرآن المكي: أن معالجة السنن الإلهية بالطريقة الشرعية تقوم على أصلين عظيمين هما أساس صلاح الإنسان وهما أيضًا أساس معالجة السنن الإلهية.

الأول: هو تحقيق التوحيد، فيتحقق بصلاح التوحيد صلاح المرجعية وصلاح المقصد، فيؤمن الإنسان المسلم بوحدة مصدر التلقي، فهو يرجع للوحي عند كل عمل إرادي يصدر منه، ليضبطه بالحكم الشرعي، ويحقق التوحيد له أيضًا: الإخلاص، فهو يعمل بالوحي، ويتوجه بقصده ونيته إلى ربّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ

أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

وكلها آيات مكية في سور مكية، هذا هو الأصل الأول الذي جاء به القرآن المكي مفصلاً في مقابلة السنن الإلهية.

أما الأصل الثاني الذي جاء به القرآن المكي في مواجهة السنن الإلهية؛ فهو الأمر بمكارم الأخلاق والنهيُ عن سيئها، على التفصيل في القرآن المكي، حتى تتابع أهل العلم مقررين أن من خصائص القرآن المكي: الحديث عن التوحيد وعن الأمم السابقة وعن مكارم الأخلاق، قال الإمام الشاطبي: (وأمّا ما يرجع إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق، وما ينضاف إليها؛ فهو أول ما خوطبوا به، وأكثر ما تجد ذلك في السور المكية من حيث كان آنسَ لهم، وأجرى على ما يتمدح به عندهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] إلى غير ذلك من الآيات التي في هذا المعنى ...،

والشريعة كلها إنّما هي تَخَلّقٌ بمكارم الأخلاق، ولهذا قال عليه السلام: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1][2])، والأولية تعني رعاية وأهميّة، وقال الشاطبي مبينًا أن مكارم الأخلاق كلها نزلت في القرآن المكي: (اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، والذي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة، كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة، وكان أولها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر..، وأمر بمكارم الأخلاق كلها كالعدل والإحسان، والوفاء بالعهد، وأخذ العفو، والإعراض عن الجاهل، والدفع بالتي هي أحسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشكر ونحوها، ونهي عن مساوئ الأخلاق من الفحشاء والمنكر، والبغي، والقول بغير علم، والتطفيف في المكيال والميزان والفساد في الأرض، والزنا، والقتل، والوأد، وغير ذلك مما كان سائرًا في دين الجاهلية ...)[3] فمكارم الأخلاق أحد الكليات التي نزلت بمكة على وجه التفصيل، والكليات في الدين قرّر العلماء أنها هي الدين المشترك بين الأنبياء كلهم[4]، وعلى

الكليات من الدين المشترك بين الأنبياء

---

(١) رواه الحاكم (٤٢٢١)، وصححه الألباني.

(٢) الموافقات (٢/٧٦-٧٧).

(٣) الموافقات (٣/١٠١-١٠٢).

(٤) قال ابن العربي عند قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]، وكأن المعنى: ووصيناك يا محمد ونوحًا دينًا واحدًا يعني في

مكارم الأخلاق من الكليات، وهي من الدين المشترك بين الأنبياء

ذلك قرّر العلماء أن الكليات لا تنسخ، فقال الشاطبي: (والقواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينات، لم يقع فيها نسخ، وإنما وقع النسخ في أمور جزئية بدليل الاستقراء)(١)، والكليات الشرعية قواعد وضعت لضبط سلوك الإنسان وتعامله مع الآخرين، ومكارم الأخلاق من هذه الكليات التي تحقق هذا الأمر في الإنسان، وحتّى يتضح الأمر أكثر نحتاج بيان علاقة التوحيد والأخلاق بالنفس، فأقول:

الله أمرنا بإنعام التفكر في النفس

النفس هي الكائن الذي يمثل الشطر العاقل من الإنسان، أودع الله فيها كل الملكات الرفيعة التي تميّز الإنسان عن الجمادات وعن الحيوان والنبات، فهي تتميز بقدرتها على الإدراك والتفكير والتقدير والعاطفة، وجميع الخصائص الإنسانية الرفيعة التي تجعل منها مخلوقًا حُرًّا في الاختيار(٢)،

الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال والتزلّف إليه بما يردّ القلب والجارحة إليه، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر، والقتل، والزنا، والإذاية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما كان، واقتحام الدناءات، وما يعود بخرم المروءات، فهذا كله شُرِع دينًا واحدًا وملّةً متحدة لم يختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدؤهم، وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، أي: اجعلوه قائمًا، يريد دائمًا مستمرًا، محفوظًا مستقرًا، من غير خلاف فيه، ولا اضطراب عليه [أحكام القرآن ٤/١٦٦٦].

(١) الموافقات (٢/٧٧).

(٢) قال ابن القيم عن النفس: (هي المتحركة باختيارها، المحركة للبدن قسرًا وقهرًا، وهي مؤثرة في البدن متأثرة به تألم وتلذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتنعم وتبأس وتحب وتكره وتذكر وتنسى) [الروح ٢١٤].

اكتسبت حريتها في الاختيار والعمل يوم أن عرض الله عز وجل الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها، وأشْفَقْنَ منها، وحملها الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[الأحزاب].

والنفس يتجلى فيها إبداع صنعة الخالق سبحانه، أقسم الله بها في القرآن، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾ [الشمس]. وحدثنا عنها في القرآن العظيم، فتكرر ذكرها فيه، وأمرنا بإنعام التفكر فيها، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]. فغدت النفس أثمن وأنفس ما في الإنسان، فالإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا ببدنه.

النفس هي الكائن الذي يحمل المميزات الفردية والأخلاق والميول الشخصية التي تكوِّن في مجموعها فلانًا من الناس، فما ترى على ظاهر الإنسان من صفات مثل: الكرم أو البخل، والشجاعة أو الجبن، والرحمة أو القسوة والغلظة، فهي في حقيقتها ليست صفات للجسد الظاهر، بل هي صفات للنفس التي بداخله.

النفس هي التي يدور الأمر كله حولها في الحياة الدنيا، وفي البرزخ، وعند الحساب. فالنفس هي الكائن في الإنسان المكلف شرعًا، قال تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٣٣].

النفس هي الجزء الأساس من الإنسان المكلف والمحاسب والمجازى

والنفس هي الكائن في الإنسان المُحاسَب، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

والنفس هي الكائن في الإنسان الذي تقع عليه المجازاة، قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠].

صلاح النفس في تزكيتها

فالنفس هي التي يوجِّه القرآنُ إليها الخطابَ من ثناء وذم، وبشرى ووعد ووعيد.

التزكية للنفس أحد مقاصد بعثة النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إن المقصود الشرعي الأعلى نحو هذه النفس هو تزكيتها، جعله الله أحد مقاصد بعثة الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس].

قال ابن عباس: (فيها أحد عشر قَسَمًا!).

فأقسم الله بالشمس وضحاها، وبالقمر، وبالنهار، وباللّيل، وبالسماء، وبالذي بنى السماء وهو الله، وبالأرض، وبمن طحى الأرض وهو الله، وبالنفس، وبمن سوّاها وهو الله، فهذه أحد عشر قسمًا، وجواب القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

وإن تزكيتها كامن في بناء الأخلاق الحميدة فيها، وإخراج الأخلاق السيئة منها، وللشريعة طريقة عظيمة تتفرد بها لتحقيق ذلك. ويكون كذلك بإصلاح العقل الذي هو أقوى قُوَى النفس وأقربها إلى إدراك الحقّ، وهو المُناط به إدراك الأشياء، وإدراك ما فيها من النفع والضرّ، وصلاحه أساس صلاح الجوارح، والإنسان كله، قال النبيُّ ﷺ: «**أَلا وَإِنَّ في الْجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)].

تزكية النفس ببناء الأخلاق الحميدة، وإخراج الأخلاق السيئة

فلا بدّ من بناء العقل السليم؛ لنصل إلى التفكير الصحيح لدى الفرد، ليدرك مصالحه الدنيوية والأخروية بصورة صحيحة متيقنة، وليكون فردًا يحترم الحقيقة، راغبًا في الوصول إليها، لا تغريه الأوهام. وهذا الصلاح للعقل ببناء التوحيد، فإذن التوحيد يصلح العقل أهم قوى النفس، قال ابن القيم: (فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح التوحيد)[(٢)]، والأخلاق تزكّي النفس، وتحقق فيها مقومات السلامة.

تزكية النفس بإصلاح العقل

من هنا: ندرك مكانة الأخلاق وربطها بالعقيدة، وكيف أنها جُعلت في الشريعة عنوان كمال الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاريّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) إغاثة اللّهفان (١/٥٤).

(٣) رواه الترمذيّ (١١٦٢)، وصححه الألبانيّ.

وندرك لماذا كان الخلق الحسن أثقلَ ما يوضع في الميزان، وأن صاحبه يسبق غيره؟!، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**»[(١)].

وندرك لماذا كان حَسَن الخُلق أعلى الناس درجة في الجنة؟!، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خلقه**»[(٢)].

فيمكن أن نجمل ما سبق حتى نقرب هذا الأمر العظيم، ونبين كيف انطلقنا في وضع التصور العملي فيما يلي:

١- أن الله سبحانه وتعالى له سننٌ في التعامل مع الناس، هي السنن الإلهية.

٢- أنّ السنن الإلهية جلّها مرتبط بالحياة المجتمعية.

٣- أن الأخلاق هي المؤثرة والمحركة لحركة الناس المجتمعية.

---

(١) رواه الترمذيّ (٢٠٠٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسّنه الألبانيّ.

٤- الإيمان بالتوحيد يقتضي توحيد مصدر التلقي، ويقتضي توحيد القصد، فلا نأخذ تشريع عبادتنا إلا من الله، ولا نقصد عند العمل بها إلا وجهه.

٥- أن نظام الأخلاق هو أول نظام عملي مكمَّلٍ نزل به القرآن.

٦- بناء الإيمان يقتضي الامتثال بنظام الأخلاق الشرعي والانقياد له.

٧- الأخلاق الشرعية هي طريق شرعي رئيس للتفعيل الصحيح للسنن الإلهية.

٨- العناية ببناء الأخلاق الحميدة هو تفعيل إيجابي للسنن الإلهية.

٩- العناية بمعالجة الأخلاق السيئة هو تفعيل إيجابي للسنن الإلهية.

١٠- قصد عبادة الله بالنظام الأخلاقي الشرعي أصلٌ في معالجة الأخلاق للسنن الإلهية.

فتصور النموذج العملي الذي سرنا عليه: بأن نضع السنة الشرعية، ونضع ما ارتبط بها من مصفوفة أخلاقية، سواء كانت أخلاقًا حميدةً تحتاج إلى بناء، أو أخلاقًا مذمومةً تحتاج إلى معالجة وتخلية. وبهذا ندرك لماذا اخترنا قضية التوحيد ونظام الأخلاق الشرعية لمعالجة القضايا الاجتماعية، فهذا لبّ الطريقة الشرعية في الإصلاح الاجتماعي.

ثالثًا: وفرة المادة المعرفية في الوحي المتعلقة بالجانب الاجتماعي.

الوقت الذي يستغرقه الحراك المجتمعي أكثر من الوقت الذي يستغرقه أداء الشعائر التعبدية

إنّ المتأمّل في الأمور العبادية المحضة كالصلاة والزكاة والحجّ، يُدرك ولا شكّ أنها تمثل أصلاً عظيمًا في الإسلام، فهي أركانه العظام ومبانيه الجسام، ولكن إن تأمّلتَ مدى ما تأخذه من وقت الإنسان اليومي في مقابل حركته المجتمعية، فسوف تجد أنها لا تمثل إلا جزءاً يسيرًا في مقابل ما يأخذه الحراك المجتمعيّ من وقت الإنسان وحركته اليومية، وعند التأمّل في الوحي، والبحث عن مقدار ما ورد فيه من النّصوص لضبط الأمرين العبادي والمجتمعيّ ستجد الفرق الكبير في الكم النّصي الشرعي الوارد لكل واحد منهما بما يتفق وما يأخذه كل أصل منهما من حياة الإنسان، وتأمّل عناوين أبواب أي كتاب في الفقه أو الحديث لتدرك ذلك.

الشعائر التعبدية ذات أثر عظيم في الإصلاح المجتمعي

وإنك واجدٌ أيضًا أن تلك العبادات المحضة لها أثر كبير في إصلاح العمل المجتمعي، وتحقيق مقاصده، وتأمل في كلمة الشاطبيّ السابقة: (والشريعة كلّها إنما هي تَخَلُّقٌ بمكارم الأخلاق، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1])[2].

(١) رواه الحاكم (٤٢٢١)، وصححه الألبانيّ.
(٢) الموافقات (٢/٧٦-٧٧).

ليس المراد من ذكر هذه المقابلات بين الشعائر التعبدية والجوانب المجتمعية، وما يستغرقه كل جانب من الوقت، ومقدار ما ورد فيه من النصوص الشرعية، ليس المراد أبدًا إنزال قدر الشعائر التعبدية، بقدر إرادة وقصد إبراز مدى اهتمام الشريعة بالجانب المجتمعيّ، والذي قصَّرت الأمّة فيه اليوم، فكان أكبر ميادين الخلل عندها، ومكمن غربتها في هذه الأزمان المتأخرة.

رابعًا: مقصودنا بالإصلاح الاجتماعي: إن الإصلاح الذي نقصده هو تقويم حركة الأفراد الذاتية والاجتماعية، وضبط تصرفاتهم فيها باستبصار العواقب، ومعالجة الانحراف النفسي والسلوكي بالطريقة الشرعية تحقيقًا لمصلحة الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، وتحقيقًا للعبودية في حياة الناس.

السنن الإلهية المجتمعية والمصفوفات القمية

الأحكام الشرعية تحتوي أخلاقًا

تبين وفق التصور العلمي سابق الذكر: أن السنن الإلهية لا بدّ أن تكون المحور الرئيس لأي خُطةٍ لتغيير واقع الناس الاجتماعي في أيّ زمان وأيّ مكان. وتبيّن أن الأخلاق هي المقومات الرئيسة لصلاح حركة الناس المجتمعية والعبادية. وأن جميع التشريعات في شريعة الله تحتوي أخلاقًا، فنجد عند تطبيق أي تشريع من قبل الإنسان لا بدّ أن يُبْنى على مجموعة خلقية، وثمرة ذلك التطبيق أنه يَبْني ويُقوّي في النفس مجموعة خلقية محمودة، ويعالج مجموعة خلقية مذمومة، فعلى سبيل المثال: الصدقة على الفقير يريدها الله لتحقق الأخوة بين المسلمين، فهذا محتوى خلقي، وعند تنفيذها من قبل المسلم هو محتاج إلى خلق الكرم والسخاء وخلق الاستجابة لأمر الله، وبعد أن يؤدي العمل الذي هو الصدقة نجد أنه بنى في النفس أو نمّى فيها خلق الرحمة والألفة والمحبة والتكافل والمروءة، وهكذا، ونجد هذا التأصيل أيضًا في المنهيات فهي تتضمن النهي عن أخلاق سيئة، فعلى سبيل المثال: قال الله عزّ وجلّ في تحريم الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]،

فبيَّن الله عزّ وجلّ في الآية: أن علّة التحريم المنصوص عليها هي ما ينجم عن الخمر والميسر من شحناء وخصومه وعداوة، وكذلك ما فيهما من تأثير على القلب وهو محل التعقل، وعلى النفس تأثيرًا يصرف عن ذكر الله وعن الصلاة، فوجدنا التنصيص على أن الأمور المنهي عنها تتضمن أخلاقًا سيئةً وتدفع لأخلاق سيئةٍ فكانت سببًا في التحريم.

فكل تشريع في الإسلام أو حكم فيه له أصلٌ خلقي، ومحتوى خلقي، ومقصد خلقي [1].

قال صاحب (تتمة أضواء البيان) عند قوله تعالى: (﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]: والمتأمل للقرآن في هديه يجد مبدأ الأخلاق في كل تشريعٍ فيه، حتى العبادات، ففي الصلاة

---

(١) قال الدكتور الريسوني في كلمة غاية في الروعة تبين مكانة الأخلاق في الشريعة: (فالتشريع الإسلامي بفرائضه ومحرماته ومندوباته ومكروهاته وآدابه ومستحباته، إنما هو تقنين وتصريف علمي للأخلاق والقيم الأخلاقية. فالمكلف في أفعاله وتصرفاته ونياته وعباداته وعلاقاته ومعاملاته، وفي ظواهره وبواطنه، وكذلك الفقيه والمفتي والواعظ والمربي والقاضي والوالي، كل هؤلاء وفي كل ما يصدر عنهم لأنفسهم، أو لأحاد الناس، أو لعمومهم: يجب أن تكون الأخلاق مرجعهم ومصدرهم وميزانهم، فالاستقامة والاعتدال والصدق والأمانة.. هذه الأخلاق وأمثالها إنما هي مناجم للتشريع وينابيع للسلوك، أو هي نفسها تشريعات وقوانين، لكونها كلية. وليس في الإسلام تشريع أو حكم إلاّ وله أصلٌ خلقي، ومحتوي خلقي، ومقصد خلقي) [الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية: ١٠٣].

خشوعٌ وخضوعٌ وسكينةٌ ووقارٌ: «**فأتوها وعليكم السكينة والوقار**»[(١)]. وفي الزكاة مرؤة وكرم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان]. وفي الصيام: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[(٢)]، وقوله: «**الصيام جنة**»[(٣)]، وفي الحجّ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإنّ من أهم قضايا الأخلاق بيانه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[(٤)] مع أن بعثته بالتوحيد، والعبادات، والمعاملات، وغير ذلك **مما يجعل الأخلاق هي البعثة)**[(٥)].

وبهذا أدركنا التلازم بين السنن الإلهية والقيم الأخلاقية، فالقيم الأخلاقية أساس في صلاح حركة الإنسان، وصلاح حركة الإنسان معالجة صحيحة للسنن الإلهية المجتمعية.

فنعرض الآن لنموذج عملي يبين الرّبط بين القضيتين، أعني: السنن الإلهية والقيم الأخلاقية، من خلال عرض السنن

(١) رواه مسلم (٦٠٢).
(٢) رواه البخاريّ (١٩٣٠).
(٣) رواه البخاريّ (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).
(٤) رواه الحاكم (٤٢٢١)، وصححه الألبانيّ.
(٥) أضواء البيان (٨/٤٢٨).

الإلهية المختارة محل الدراسة، وما ارتبط بها من معاني وأحكام وآثار على الناس والأرض، وبيان محور المعالجة الشرعية المطلوبة المتجه نحو البناء الأخلاقي، ثم نذكر المصفوفة الخلقية التي تقابل بها تلك السنة الإلهية، يكون التركيز على أن تكون الأخلاق المختارة أخلاقًا عليّا، أي: ما يمكن أن يُمثل أصلاً خلقيًا تحتوي تحته مصفوفة خلقية أصغر، بمجموعها يتحقق ذلك الخلق الأعلى، وأن يكون الخلق المختار ذا ارتباط واضح، إمّا بأمر مأمور به في تلك السنة الإلهية، أو بأمر منهي عنه في تلك السنة الإلهية.

لقد كان اختيار السنن الإلهية محلّ الدراسة، بناءً على:

١. شدة التحذير الشرعي من تلك السنة الإلهية، والتنويه بعظم شأنها.

٢. شدة الحاجة إليها باعتبار حياة الناس اليوم.

وأما اختيار القيم الأخلاقية، محل معالجة السنن الإلهية المجتمعية المختارة؛ فكان بناء على ما يلي:

- نصّ الشّارع على أن تلك القيمة الأخلاقية هي محل المعالجة الرئيسة لتلك السنة الإلهية.

- بالتأمل في معنى القيم الأخلاقية لندرك شدةَ الاحتياج إليها في معالجة السنة الإلهية المختارة.

فتكون حوكمة اختيار القيمة إلى ما يلي:

١- النص الشرعي المُثْبِت التلازم بين القيمة والسنة الإلهية محل المعالجَة.

٢- إن كان اختيار القيمة بالاستنباط فتكون الحوكمة: (أ) بالتنصيص من أهل العلم. (ب) بالاقناع من خلال معنى القيمة ومفهوم السنة ووضوح الترابط بينهما.

وأما حوكمة المعنى المذكور للقيمة الخلقية، فيكون بورود ذلك المعنى في النص الشرعي، أو عند علماء اللغة، وعلماء الشريعة المعتبرين.

والسنن محل الاختيار هي:

١- سنة الله في الظلم والظالمين

٢- سنة الله في اتِّباع هداه ومخالفته.

٣- سنة الله في الاجتماع والافتراق.

٤- سنة الله في الترف والمترفين وبطر النعمة.

إن التأمّل في السنن سابقة الذكر بعد الرجوع إلى النصوص التي بيَّنت أثارَ هذه السنن في هذه الأمة، ليعطي دلالةً واضحةً: أنها ذات أثر عظيم على مصالح الناس في الدنيا والآخرة، وذات أثر واضح في حياتهم الاجتماعية. وهذه وقفة سريعة لبيان ما ارتبط بهذه السنن من آثار على الحياة الاجتماعية.

سنة الله في الظلم والظالمين

لقد سبق بيان أن سنة الله في الظلم والظالمين هي من أعظم السنن الإلهية تأثيرًا على حياة الناس، يقول ابن القيم: (وقد ذكر الله سبحانه عقوبات الأمم من آدم إلى آخر وقت، وفي كل ذلك يقول أنهم ظلموا أنفسهم، فهم الظالمون لا المظلومون)[1]، ولزيادة الإيضاح في تأثيرها على الحياة الاجتماعية فقد ذكر العلماء أنه يدخل عدد من الأعمال الاجتماعية المنحرفة عن الحقِّ ضمن هذه السنة، قال الذهبي: (الظلم يكون بأكل أموال الناس وأخذها ظلمًا، وظلم الناس بالضرب والشتم والتعدي والاستطالة على الضعفاء)[2].

ومما أدخله العلماء تحت مفهوم الظلم من الأعمال الاجتماعية أيضًا: أخذ مال اليتيم، والمماطلة بحقِّ الناس مع القدرة على الوفاء، وظلم المرأة حقَّها من صداق ونفقة وكسوة، وظلم الأجير بعدم إعطاء الأجرة، والظلم في القسمة، والظلم في تقويم السلع، فبهذا ظهر شدة الربط بين سنة الظلم والظالمين والحياة الاجتماعية.

من آثار الظلم في حياة الناس

أما آثار الظلم فنجمل ذلك في فقرات:

أولاً: ورد في النصّ أن العقوبة في الظلم معجلة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله تعالى**

(١) الفوائد (١٩٢).

(٢) الكبائر (١٠٤).

لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم»[1].

ثانيًا: ورد في النص أن الله تعالى يعاقب الظالم والمجتمع الذي يشيع فيه الظلم بأن يتولاهم حاكم ظالم، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام].

قال الألوسي في تفسير هذه الآية: (وقد استدل بالآية على أن الرّعية إذا كانوا ظالمين؛ فإن الله تعالى يسلط عليهم ظالمًا مثلهم)[2].

وقال السّعدي في (تفسيره) أيضًا: (ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة، وُلِّي عليهم ظلمةٌ يسومونهم سوءَ العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين)[3].

ثالثًا: جاء في النصّ أن البلاد تخرب بسبب الظلم، وتُرفَع البركةُ عنها، قال الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[النمل].

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٢)، وصححه الألبانيّ.

(٢) روح المعاني (٨/٢٧).

(٣) تفسير السعدي (٢٧٤).

قال القرطبي: (إنّ الجورَ والظلم يخرب البلادَ بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة)[1].

رابعًا: جاء في النصّ أن المجتمع يعاقب كلُّه إذا لم يأخذ على يد الظالم، ويمنعه عن ظلمه، فعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الناس إذا رأوا ظالمًا، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم بعقاب منه**»[2].

ولنا أن نتخيل الصور المترتبة على هذه العقوبات في أي مجتمع وأي كيان أو مؤسسة ومدى الشدة التي تنزل بالناس، وقد لا يدركون أن السبب في ذلك وقوعهم في سنة الظلم والظالمين.

إنّ المتأمل في حال الظالم يجد أن هناك أبعادًا خُلقية لدى الظالم كانت منشأ ذلك الظلم عنده، سواء اجتمعت فيه أو وجد بعضها، فالظلم يدل على نفسية فيها كِبْرٌ؛ لأنّ الظالم لا يقبل الانقياد للحقّ، والكبر يمنع صاحبه الانقياد، ويدل على نفسية لا تملك نفسها من الغضب، والغضب إذا لا يملكه الإنسان فإنه يمنعه من العدل، والامتناع من العدل دخول في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٣٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٣٨)، وصححه الألبانيّ.

الظلم، ويدل على نفسية لا تملك نفسها عند ثوران الشهوة، وثوران الشهوة إذا تملَّكَ الإنسان فإنه يصعب عليه الصبر، ويدل على نفسية فيها شيء من الحسد، والحسد يمنع صاحبه قبول النصيحة، ويدل على نفسية شحيحة لا تعطي ولا تقبل التنازل، والشحّ يدفع للظلم.

إن معالجة الظلم إنما تكون بتحقيق ضده والالتزام به وهو العدل، فالله سبحانه نهى عن الظلم وقبَّح شأن فاعله وأمر بالعدل، ففي سورة الأنعام وهي سورة مكية نجد فيها قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام]، وقوله

سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام]، فتكرر لفظ الظلم فيها ثلاثة عشرة مرّة، وبين سبحانه أن الشرك ظلم وهو أعظم الظلم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [الأنبياء]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان]، وبين سبحانه أن من الظلم ظلم الإنسان نفسه، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر]، وبيّن سبحانه أن من الظلم ظلم الآخرين، قال سبحانه عن إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ [يوسف]، وقال على لسان يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف]، وقال سبحانه آمرًا بالعدل: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل]، قال ابن تيمية: (وأصل العدل في حق الله تعالى هو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن الشرك ظلم عظيم)[1]، وقال: (والتوحيد أصل صلاح الناس والإشراك

---

(١) الجواب الصحيح (١/٢٢).

أصل فسادهم، فالتوحيد أعظم العدل، والشرك أعظم الظلم)[1]، وقال: (وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس)[2].

فنجد قبل وقوع الظلم وجود نفسيه متكبرة غليظة غاضبة شهوانية حسودة حقودة، وعند القيام بالظلم نجد نفسيه ظالمة غشومة، وبعد الظلم نجد الفرقة والشحناء والتباغض والمكر والكيد.

ونجد قبل وقوع العدل نفسية رحيمة مستقرة متوازنة متثبته سليمة القلب والنفس من الكبر والحسد، وعند القيام بالعدل نجد نفسية عادلة منصفة، وبعد العدل نجد الاجتماع والألفة والقوة والمحبة، وفي صورة مجملة لا بدّ أن ندرك ما يلي:

١. أن الله سبحانه أرسل الرسل جميعًا، والبينات أنزلها معهم، والكتب التي أنزلها عليهم وبعثهم بها، كل ذلك لمقصد واحد هو أن يقوم الناس بالقسط، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٦٥-١٦٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٨).

٢. أن العدل لا ينحصر في الحكم بين الخصوم وفي إعطاء الناس حقوقهم بالنصفة والعدل فقط، وإنما هو مطلوب في كل شيء وفي كل مجال فهو يدخل في عامة الأقوال والأفعال والتصرفات بدون تحديد، والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، بهذا العموم فهو مطلوب من كل الناس ولجميع الناس، وفي جميع المجالات وفي كل الحالات.

٣. أن شريعة الله مقصودها ومطلوبها إقامة حياة القسط ومجتمع العدل، أي مجتمع ترى العدل يحكم كل حركة فيه، فتجد نفسك وأنت ترى ذلك تقول هذا مجتمع عادل[١].

فملخص ما سبق أن معالجة سنة الظلم والظالمين كامن في تحقيق العدل وقيام ميزانه في الأرض ليحكم في كل شيء.

سنة الله في اتباع هداه

أمّا سنة الله في اتّباع هداه؛ فالله أخبر أن هداه هو الذي يستحق أن يُسمّى هدًى، قال تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠، الأنعام: ٧١].

(١) انظر في هذه الفوائد: الكليات الأساسية للشريعة، د. أحمد الريسوني (٩١-٩٢).

وأخبر أن ما جاء به رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الهدى، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الإسلام، وأخبر الله أنه لا يقبل من أحد بعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وسنة الله في اتِّباع هداه بيَّنت أن متَّبع هدى الله متحققٌ له ضمانة مضمونها أنه لا يصيبه خوف في الدّنيا، ولا يصيبه حزنٌ وشقاءٌ في الآخرة ومضمونها: أن لا يكون ضالاً في طريقته في الدّنيا، وهذا ليس لأحد غيره، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه].

وأن متبع هدى الله يحيا حياة طيبة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[النحل: ٩٧].

وأما المعرض عن هدى الله فسنة الله في حقِّه:

سنة الله في حقّ من أعرض عن هداه

أولاً: يقيض الله له شيطانًا يصاحبه، ولا يفارقه يُزيّن له الشرّ، ويغريه ويؤزّه إليه أزًّا، ويصده عن سبيل الحقّ، ويدفعه عنه دفعًا، ويهيئ له أنه على هدى وصواب، قال تعالى: ﴿ وَمَن

يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

ثانيًا: العيشة الضنك للمُعْرِض عن هُدى الله، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه].

ثالثًا: من ترك هدى الله، ولم يتبعه؛ يتركه الله سبحانه، وما اختاره ولا يتولاه ولا ينصره، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ، والأمر لأمّته: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

إنّ المتأمل في حال المهتدي بهدى الله يجد - بعد توفيق الله - أن أساس ذلك فكر صحيح [1]، وقلب سليم،

---

(١) قال ابن القيم: (أصل الخير والشر من قبل التفكُّر، فإنّ الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها،

ونفس طيبة [(١)] أثمروا عند اجتماعهم إدراك صحيح بأن الحق المتيقن كامنٌ في الوحي المنزل على رسول الله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأن النفع الكامل الشامل للدارين متحقق في أتباعه، وأن الشريعة جادّة لا عوج فيها فهو صراط الله المستقيم، الموضوع في الأرض يُقوّم العقول والنفوس والأعمال، فمن سلّم نفسه للوحي قومها له فاستقامت حاله، فالنفس راضية بما اختاره العقل من الخضوع للوحي والتلقي عنه يتمثل ذلك في مسؤولية كاملة تحملتها النفس عن رضى ومحبة لا ترضى التنازل عنها ولا تحب التحول إلى غيرها، يُصدِّق ذلك إرادة جازمة منها في تحريك الجوارح وفق مراد الله وأعمال مباركة تنجزها الجوارح تظهر سلامة الانتماء للدين، إنّ هذه السلامة الداخلية للإنسان والخارجية له يجمعها خلق الاستقامة، وهي كما قال ابن القيم: (كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال،

الاستقامة أصل معالجة سنة الله في اتباع هداه

فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار ويليها أربعة، فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء) [الفوائد:٣٤٨].

(١) (النفس الطيبة هي التي زكت فعلت همتها، وترفعت عن الدناءة، ثم كان علو الهمة صفة راسخة ولازمة لها، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة وكل ما في الشريعة كذلك، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار) [انظر: الفوائد:٣٤٠-٣٤١].

والأفعال، والأحوال، والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله)[1]، قال الله تعالى في سورة يونس وهي مكية: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩]، فالاستقامة إذن هي أمر الله للأنبياء السابقين، وقال تعالى في سورة الشورى، وهي سورة مكية: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥] دلّت على أن الاستقامة هي أمر الله للنبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال تعالى في [سورة هود]، وهي سورة مكية: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾، فدلّت على أن الاستقامة هي أمر الله للمؤمنين، والاستقامة أمر الله سبحانه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأمر بها الناس، قال تعالى في [سورة فصلت]، وهي سورة مكية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾، والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل ذلك، فقال للناس: «**استقيموا ولن تحصوا**»[2]، وقال ﷺ: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[3]، وقال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (**يا معشر القراء استقيموا**)[4]، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (**عليك بتقوى الله والاستقامة**)[5]، إذن فالاستقامة:

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٠٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٧٧)، وصححه الألبانيّ.

(٣) رواه مسلم (٣٨).

(٤) رواه البخاريّ (٧٢٨٢).

(٥) رواه الدّارميّ (١/١٩٣).

هي الطريق لتفعيل سنة اتِّباع هدى الله؛ لأنها عند بنائها في الفرد تخرج لنا إنسانًا سليم القلب طيب النفس صالح العمل، فالاستقامة إنسان بفكر مستقيم، وعقيدة مستقيمة، ولسان مستقيم، وعمل مستقيم، فهذا مكمن المعالجة لسنة اتّباع هدى الله.

سنة الله في الاجتماع والافتراق

وسنة الله في الاجتماع والافتراق، فهي من أعظم السنن تأثيرًا في هذه الأمة المحمدية، فإنّ الحديث القدسي واضحُ الدّلالة في أنّ مصاب الأمّة بهذه السنة عظيمٌ، قال فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم. يستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضًا**»[1].

وقد تضافرت النصوص الشرعية داعيةً أهل الإسلام إلى الاجتماع، ومحذرةً من الافتراق، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد عدَّ العلماءُ أن الاجتماع ونبذ الخلاف والافتراق بين المسلمين من أعظم أصول الدين، قال القاضي عياض: (والألفة إحدى فرائض الدين، وأركان الشريعة، ونظام شمل الإسلام)[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) إكمال المعلم (١/٢٠٢).

وقال شيخ الإسلام: (التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضًا ويعاديه، ويحب بعضًا ويواليه على غير ذات الله، وحتى يفضي الأمر ببعضهم إلى الطعن واللّعن والهمز واللمز، وببعضهم إلى الاقتتال بالأيدي والسلاح، وببعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض، وهذا كلّه من أعظم الأمور التي حرمها الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣]، وهذا الأصل العظيم هو من أعظم أصول الإسلام، وممّا عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمُّه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، وممّا عظمت به وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواطن عامة وخاصة، مثل قوله: «**عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة**»(١)). وقال: (وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل ومن غيرها هو التفرق والاختلاف)(٢).

الاجتماع من أعظم أصول الإسلام

والمتأمل في تاريخ الأمة كم كان لهذه السنة من أثر على هذه الأمّة في فترات متعددة من تاريخها، وفي عدد من

آثار سنة الله في الاجتماع والافتراق على حياة الناس

(١) رواه البيهقيّ في (شعب الإيمان ٢/ ١٠).

(٢) رسالة الألفة بين المسلمين (٢٥-٢٧، ٣٢).

مجتمعاتها، يجد كيف كانت السنة صادقة فيما تضمنته من آثار، كان منها أن ضَعُفت من بعد قوة، وانهزمت من بعد انتصار، وتشتتَ شملُها من بعد اجتماع، إنّ المتأمل في هذه السنة وهو يستعرض آثارها على المسلمين عبر تاريخهم، وفي زمننا المعاصر، ليدرك مدى الحاجة الملحة لمعالجة هذه السنة، وعند النظر في وحي الله سبحانه نجد أن محور المعالجة كامن في تحقيق الأخوة الإسلامية وما تضمنته من مفاهيم وحقوق وواجبات، فتحت محتوى المفاهيم لا بدّ أن ندرك: أن الشريعة جعلت الأخوة القائمة على الدين أساس العلاقة التي يرضاها الله بين الناس، فهي تقوم على التلاقي الفكري والعقدي والعمل الصالح، فقبول هذه العلاقة من الإيمان، وهو يوجد القابلية للخضوع والانقياد للحقوق المترتبة على هذه العلاقة، وتحت محتوى الحقوق والواجبات أوجبت بين المتآخين حسن التعامل والاحترام والحب، وأوجبت التناصر والتناصح والحماية والحفظ فيما بينهم، وقيام ميزان العدل في التعامل بينهم وعدم الظلم، وأوجبت سدّ الخلة وعدم الإساءة لا في أمر معنوي ولا في أمر محسوس، وأوجبت أن يكونوا صفًّا واحدًا وجسدًا واحدًا، ولتقريب هذه المعاني في كليات تدلنا على محور المعالجة نجد أن العلماء ذكروا في هذا الباب مصطلح الأخوة الإسلامية، والتكافل، والاتحاد، وإن كانوا عند تعريف كل واحد منها ذكروا من المعاني بعض ما ذكروه في المصطلح

الأخوة الإسلامية أصل معالجة سنة الله في الاجتماع والافتراق

الآخر؛ فكل واحد منها يمثل كلية خلقية كبرى، ولكن لما كان تحقق الاجتماع ونبذ الخلاف، يحتاج إلى جهد كبير تعالج فيه النفس من أمراض عدّة، قد تكون عميقة الغور في النفس الإنسانية، فالأمر يحتاج إلى التدرج احتياجًا ضروريًا، ينظم إلى ذلك كثرة الأحكام الشرعية المرتبطة بهذه السنة لهذا سنأخذ هذه الكليات الثلاث: الأخوة والتكافل والاتحاد، مضافًا إليها التعامل بميزان العدل، ثم نجمل ما تضمنته سنة الاجتماع وعدم الافتراق من معالجات رئيسة ونقسمها بين هذه الكليات الأربع مع محاولة أن ينظم إلى كل كلية منها المعنى الأبرز في الارتباط بها، فنجعل الأخوة تُعنى بما يحقق بناء المفاهيم عن الرابطة المقدسة التي يرضاها الله أن تكون بين المسلمين، والتي تلتقي على أمور ثلاثة: الفكر السليم، والعقيدة الصحيحة، والعمل الصالح، وتكون العناية بأول نتائجها من الاحترام والحب وحسن التعامل وعدم الإساءة، ونجعل التكافل يعنى بالتناصر والحماية وسدّ الخلّة وتفريج الكربة وخاصة في الأمور المادية، ونجعل ميزان العدل يُعنى بأداء الحقوق التي وجبت على الإنسان نحو إخوانه وخاصة الحقوق المادية، ونجعل الاتحادَ يُعنى بتحقيق الجسد الواحد للمجتمع المسلم والارتقاء بالعقول لإدراك المصالح الكبيرة للمجتمع المسلم في ذلك، وتهيئة النفوس له، سواء كان ذلك كله على مستوى كيان مخصوص أو المجتمع بأكمله، وفي تحقيق هذه الأمور تكون المعالجة الرئيسة لسنة الاجتماع

والافتراق، كما أنها تسهم في معالجة سنة الظلم والظالمين، وكذلك سنة اتّباع هدى الله عز وجل، وسنة الترف والمترفين، وهذه المعاني قد تواردت النصوص الشرعية في تأسيسها، ففيما يتعلق في جانب الأخبار عن الرابطة والحب الذي ينبغي أن يبنى عليها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله**»(١)، وفي جانب سدّ الخلّة وتفريج الكربة والتناصر ورد في ذلك قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة**»(٢)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنصر أخاك ظالماً أو مظلومًا**» قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالماً. قال: «**تأخذ فوق يديه**»(٣)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(٤)، وفي جانب الجسد الواحد، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا**» وشبّك بين أصابعه(٥).

---

(١) رواه البخاريّ (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٦٤) واللفظ له.

(٢) رواه الترمذيّ (١٩٣١)، وصححه الألبانيّ.

(٣) رواه البخاريّ (٢٤٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٤).

(٤) رواه البخاريّ (٢٤٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٦٤).

(٥) رواه البخاريّ (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

سنة الله في بطر النعمة

وأمّا سنة الله في بطر النعمة وعدم شكرها؛ فإن الله سبحانه من سننه إهلاك البطرين وتخريب ديارهم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص].

ومن سنته تعالى: أنه لا يغير نعمة أنزلها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قال الرّازي: (إن كلام جميع المفسرين يدل على أن المراد: أن الله تعالى لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام منهم إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد)[(١)].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾ [الأنفال]، قال رشيد رضا: (أي: لم يكن شأنه تعالى ولا مقتضى سننه العامة في خلقه أن يغير نعمةً ما، أنعمها على قوم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة ... هذا بيان لسنة عظيمة من أعظم سنن الله تعالى في نظام الاجتماع البشري، يعلم منها بطلان تلك الشبهات التي كانت غالبة على عقول الناس من جميع الأمم، ولا يزال جماهير الناس يخدعون بها، وهي ما

(١) تفسير الرازي (٢٢/١٩).

يتعلق بنوط سعادة الأمم وقوتها وغلبها وسلطانها بسعة الثروة ... وأثبت لهم أن نعم الله تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودوامًا بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشئون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم لينتزعها منهم انتزاعا بغير ظلم منهم ولا ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يترتب عليها من محاسن الأعمال ، غير الله عندئذ ما بأنفسهم، وسلب نعمته منهم ، فصار الغني فقيرًا، والعزيز ذليلا ، والقوي ضعيفا . هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم)[(١)] .

والشكر لله من أعظم ما تحفظ به النعم، فالله وعد بذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم].

المعالم الرئيسة لشكر النعم في الأموال والممتلكات

والله سبحانه يبيّن أن من سنته أنه لا يعاقب عند وجود الشكر من العبد له سبحانه، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء] إن الشكر كما يكون باللسان يكون بالعمل، ومن معالم الشريعة في تحقيق الشكر مع النعم ما يلي:

١. المحافظة على الصلاح الأصلي.

(١) تفسير المنار (١٠/٣٦-٣٧).

٢. النماء والزيادة الراشدة.

٣. عدم الإسراف عند الاستخدام.

٤. عدم العبث المتلف.

إنّ هذه معالم رئيسة لمعالجة سنة الترف والمترفين فيما يتعلق بالتعامل مع الممتلكات والأموال وهذا الحد الذي نقصد معالجته في هذه السنة في هذه المرحلة.

الأخلاق في الإسلام نسيج مثله مثل العروق

إن إدراكنا لهذه السنن الإلهية وإدراكنا للكليات الشرعية محل المعالجة يجعلنا ننطلق إلى المرحلة التي بعدها، وهي الوقوف على أصول الأخلاق الحميدة التي ينبغي بناؤها، وكذا أصول الأخلاق المذمومة التي ينبغي معالجتها وَفق الكليات الشرعية سابقة الذكر، وأذكِّر بأن المقصود ذِكرُ الأخلاق العُليا والأكثر ارتباطًا بالسّنة والكلية الشرعية؛ لا أنّ السنة أو الكلية الشرعية لا تبنى ولا تعالج إلا بقيمة أخلاقية واحدة فحسب، فالأخلاق في الإسلام هي نسيج واحد مثل العروق في جسم الإنسان، ولكن العروق منها الكبير والصغير، فمنها: الشرايين، ومنها: الأوردة، ومنها: الشعيرات الدموية، والعمل التطبيقي محتاج إلى التدرج، والبدء بالأهم فالمهم.

فننطلق في الربط بين السنن الإلهية المجتمعية والقيم الأخلاقية بهذا التصور حتى نصل إلى ما نحتاجه من مصفوفات قيمية أخلاقية، قابلة للتطبيق تحدث الفرقَ في المجتمع مقابل السنن سابقة الذكر.

استخراج القيم المجتمعية والأصول الأخلاقية بالتوافق مع السنن الإلهية

إن التأمل فيما سبق من توجه معالجة السنن الإلهية لمعرفة موطن المعالجة ومكان البناء يعطينا الخلاصات التالية:

١. أن صلاح الإنسان محور رئيس لمعالجة السنن الإلهية.

٢. أن صلاح الإنسان متجه نحو أمور أربعة، وهي:

أ- صلاح حركته الذاتية.
ب- صلاح حركته التفاعلية مع بني جنسه.
ت- صلاح حركته مع المخلوقات.
ث- صلاح طريقة إدارته لما تحت ولايته.

٣. صلاح الأرض وعدم الفساد فيها.

إن السنن الإلهية محل الدراسة تكتنف المحاور السابقة، ولا يعني المساواة في قوة الارتباط، فقد يكون ارتباط السنة بأحد المحاور أكثر من غيره؛ وهذا ما سوف نسير عليه.

فسنة الله في اتباع هداه أو مخالفته فسوف يكون تركيز المعالجة من خلال ميدان إصلاح حركة الإنسان الذاتية باعتبار أن أساس المعالجة الاستقامة والأصل في الاستقامة سلامة

حركة الإنسان الذاتية وصلاح العلاقة التي بينه وبين الله عزّ وجلّ.

وأما سنة الله في الاجتماع والافتراق؛ فسوف يكون تركيز المعالجة من خلال ميدان إصلاح حركة الإنسان التفاعلية مع بني جنسه.

وأما سنة الله في الترف والمترفين؛ فسوف يكون تركيز المعالجة من خلال ميدان تعامل الإنسان مع الممتلكات والأموال.

وأما سنة الله في الظلم والظالمين؛ فسوف يكون تركيز المعالجة من خلال ميدان إدارة الإنسان لمن تحت ولايته.

وكما قلت أن كل سنة من السنن لها تأثير في جميع الميادين الأربعة، ولكن المقصود محل التركيز لمعالجة السنن يكون حسب الترتيب السابق، وحتى نقترب من الجانب العملي التطبيقي المنظم وفق هذه الرؤية، فسوف نعيد ترتيب الكليات الأخلاقية (القيم الأخلاقية) سابقة الذكر، والتي تعالج بها السنن الإلهية الأربع سابقة الذكر على النحو التالي:

أولاً: الكليات الأخلاقية المعنية بصلاح الفرد وحركته الذاتية.

ثانيًا: الكليات الأخلاقية المعنية بصلاح تعامل الفرد مع أقرانه من الناس.

ثالثًا: الكليات الأخلاقية المعنية بصلاح تعامل الفرد مع الكيان وممتلكاته.

رابعًا: الكليات الأخلاقية المعنية بصلاح إدارة الراعي للكيان «المسئول عن الكيان».

فسوف نعرض لكل قسم من هذه الأقسام لنعرف الكليات الأخلاقية المختارة والتي من خلالها تُعالج السنن الإلهية التي هي محل الدراسة، وسوف يكون ذكر الكليات الأخلاقية لكل قسم على النحو التالي: ذكر كليّات أخلاقية «القيم» بحيث تكون تلك الكليات تحدد لنا مسار البناء الأخلاقي وتعطينا دلالة على الهدف الذي نريد أن نحققه من البناء الأخلاقي وأيضًا تعطينا وضوحًا للحُزمة الأخلاقية الأصغر التي نحتاجها للبناء، فإذا حدَّدنا تلك الكلية الأخلاقية «القيمة» نذكر تحتها: الخلق الرئيس الذي يكون هو المحور للتفعيل والبناء والنماء عند التعامل مع الفرد لنتجه به نحو تلك الكلية الخلقية «القيمة»، فعلى سبيل المثال عندما نختار ضمن الكليات الأخلاقية المعنية بصلاح تعامل الفرد مع أقرانه من الناس فنختار علاقة التكافل لكي تكون إحدى الكليات التي تُبنى عليها صحة التعامل، فهي تعطي دلالة واضحة أننا نريد من هذا الإنسان أن يشعر أن لأخيه حقًّا يستلزم منه أن يقف معه عند الاحتياج إليه بعموم صور الاحتياج وعموم صور الدعم وعموم الأفراد بعضهم مع بعض مهما اختلفت مستوياتهم، بل

إن معنى التكافل يرتقي عن دائرة المساعدة الذاتية للمحتاج إلى دائرة التضامن بين الأفراد والمسؤولين لإيجاد المجتمع الأفضل، ودفع الضرر عن أفراده حتى يظهر المجتمع بصورة الجسد الواحد، فهذا مدلول كبير يحتاج إلى التدرج للوصول إليه، ولكنه حدد لنا بوضوح أن سنة الاجتماع والافتراق معالجتها في الشريعة بأن تقوم هذه العلاقة التكافلية بهذا المدلول، حتى نضمن عواقب هذه السنة الإلهية، فاختيار هذه الكليات مردّه البحث العلمي الشرعي المحض، ثم عندما نختار الخلق الرئيس الذي يُسهم بقوة ووضوح في بناء هذه الكلية الخلقية، فكان الاختيار لخلق المواساة التي بمعناها المحدد: معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الأموال والأقوات[1].

فنجد أن الكلية الخلقية «القيمة» أعطتنا التوجه العام والإطار الأوسع، والخلق الرئيس «المواساة» حدَّد لنا المراد في هذه المرحلة، مراعاة للتدرج من حيث القدرة والإقناع للآخرين، ومراعاة للواقعية ولتحقيق نجاح ينقل إلى آخر، خاصة عندما ندرك أن المواساة قد تكون بالابتسامة، والكلمة، والشفاعة، والدعاء، وأقل العطاء، فالعبرة أن يشعر صاحب الحاجة أن من حوله معه، ولا يظهر في المجتمع عدم الاكتراث من الإخوان نحو أخيهم المسلم، ثم تحت المواساة

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (٣١/٣).

نحتاج إلى مصفوفة خلقية أصغر تبني المواساة مثل: احتياجنا لخلق الكرم حتى تتحقق المواساة بالمال، ولخلق الشجاعة حتى تتحقق المواساة بالبدن، ولخلق الرأفة حتى تتحقق المواساة بالدعاء، ولخلق البشاشة حتى تتحقق المواساة بالابتسامة.. وهكذا[1].

وأيضًا نحتاج عند بناء أي خلق أو نمائه إلى معالجة ما يضاده من الأخلاق السيئة عند وجودها، فمثلا: قد نحتاج لمعالجة البخل والشح والحرص والحسد عند بناء خلق الكرم سواء معالجة كل هذه الأخلاق السيئة، أو بعضًا منها بحسب وجود الخلق السيئ المعارض للخلق الممدوح المراد بناؤه، بهذا ندرك الطريقة التي نسير عليها عند التطبيق.

(١) قال ابن القيم: (المواساة للمؤمنين أنواع:
الأوّل: مواساة المال.
الثاني: مواساة بالجاه.
الثالث: مواساة بالبدن والخدمة.
الرابع: مواساة بالنصيحة والإرشاد.
الخامس: مواساة بالدعاء والاستغفار لهم.
السادس: مواساة بالتوجع لهم) [الفوائد ٣٩٤].

أولاً : القيم الأخلاقية المعنية بصلاح الفرد في حركته الذاتية.

المسؤولية الفردية هي الأساس في التكليف الشرعي، قال الله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة].

إن هذا الأمر ليعطي دلالة واضحة أنه بقدر ما كان البناء صحيحًا في الفرد، فسوف يسهل ما بعده من البناء، ولما كان صلاح الفرد محتاجًا إلى صلاح داخلي تصلح فيه قوة العقل والنفس، وصلاح خارجي تصلح به الجوارح، فإنّ الكلية الأخلاقية المختارة لهذا الصلاح هي الاستقامة، وسبق التدليل على ذلك وأذكّر بتعريف الإمام ابن القيم للاستقامة الذي يدل على أن الاستقامة كلية خلقية تشمل صلاح الفرد الداخلي والخارجي فقال: (الاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدّين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد

والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيَّات، فالاستقامة فيها وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله)[1].

وإن مقصودنا من صلاح الداخل هو صلاح العقلِ وتزكية النفس، ولمّا كان العقل هو القوة الفاعلة في الإنسان المُناط بها تحديد النافع والضار، ومن عندها تتحول الأفكار والمعارف إلى إرادات ثم أعمال، والعقل هو المُناط به إصلاح النفس، والمُناط به إدراك الوحي وفهم مراد الله، وكان عند انحرافه يحصل في النفس أكبر أسباب قيام الشرك والصدود عن الله والإعراض عن هداه، وكان هو أعظم مقصود إبليس بحَرْفِه عن الحقِّ، وهو أيضًا أعظم مقصود لأعوان إبليس من شياطين الإنس: أصبحت العنايةُ به أعظم مقصود الأنبياء وأتباعهم لإصلاح الإنسان.

إصلاح العقل ببناء خلق العدل ومحبّة الله عزّ وجلّ

ولإصلاح العقل بقوّته الإدراكية والإرادية نحتاج إلى خُلقين رئيسيين، ولكل منهما خلقٌ آخر لحمايته بعد بنائه، فكان خلق العدل هو الخلق الأول المختار لإصلاح عقل الفرد وتصحيح فكره. والمراد من خلق العدل: تحقيق أمر واضح ومحدد، وهو: قيام العلاقة الصحيحة بين العبد وربِّه، القائمة على معرفة هذا الإنسان لربِّه، وما هو موصوفٌ به من صفات الجلال والكمال والغنى. ومعرفة هذا الإنسان لنفسه وما هو موصوف به من صفات الضعف والنقص والعجز والفقر[2].

---

(١) مدارج السّالكين (٢/١٠٥).

(٢) قال ابن القيم بعد أن ذكر هذين العلمين: علم الإنسان بربه وعلمه بنفسه: (ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله، وتخبطت

وأن تكون الثمرة التي هي مقياس النجاح والمعيارية فيه، هي: قيام ميزان العدل الذي هو شعوره بالكفاية بربّه، فيكون الله سبحانه مقصوده بأن يعبده وحده، والكفاية بوحيه، فيكون هو مصدره ومرجعه في كل ما يحتاجه لصلاح نفسه ودنياه وآخرته؛ لأن الله هو صاحب الأمر والتدبير. إن وصول الإنسان لذلك، وبناءَه في عقله يكون الإنسان قد حصل على حبل النجاة المتّين، ولما كان هذا الأمر عظيم القدر غالي الثمن، متى ما بناه الإنسان، فقد نازل إبليس عدو الإنسان في أوسع حلبات الصراع، فهل يقبل الإنسان الهزيمة من عدوّه، فاحتاج الأمر ممّن أكرمه الله بصلاح عقله بقيام ميزان العدل فيه إلى حماية يحفظ بها خلق العدل بعد بنائه، فكان الاختيار لخلق المراقبة لله عزّ وجلّ، وهو أعظم واعظ أنزله الله لحماية صلاح العقل والنفس[1]، وهو: أن يُبْنى في الإنسان استحضار

حماية صلاح النفس ببناء خلق الخشية من الله

حماية صلاح العقل ببناء خلق مراقبة الله والخوف منه

عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله، فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علمًا وحالا، وانقطاعه بفواتها) [الفوائد: ٣٤٣].

(١) قال الأمين الشنقيطي عند قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود]: (اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر، ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون) [أضواء البيان ٣/١٠].

وقال أيضًا: (ولا تقلّب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى) [أضواء البيان ٢/١٧٠].

مراقبة الله واستشعار معيته سبحانه، معية الجلال والهيبة والعظمة، فيُفَعِّل الإنسان هنا باب الأسماء والصفات لله عزّ وجلّ، ويتخير من الأسماء والصفات ما ينمي خلق المراقبة لله عزّ وجلّ. والخلق البنائي الثاني لصلاح العقل هو: محبّة الله عزّ وجلّ، ووجوده يمثل معيارية نجاح لبناء خلق العدل. والمراد: أن تكون محبّة الله عزّ وجلّ بعد معرفته سبحانه هي الدّافع الأساس للاستجابة لأمره سبحانه، وهي الشعور الذي تجده عند كل عمل، وهي المقياس لكل محبوب سواه، فمحبّة الله تكون أصلاً لمحبة كل ما عدا الله، ومتى ما خلت الأعمال من وجود هذا المعنى؛ فهو دليل خللٍ في أصل البناء الفكري للإنسان.

وعند بناء هذا الخلق نحتاج إلى خلق حمائيّ له خوفًا من مكر الشيطان وكيد النفس الأمّارة بالسوء، في تعليق العقل بالشهوات، فاحتجنا إلى خلق الخوف من الله عزّ وجلّ، كخلق يستخدم لقطع هذا الوارد المفسد، وللمحافظة على الخلق البنائي، وهو: محبّة الله عزّ وجلّ.

الظلم من صفات النفس

فهذه محاور البناء والمدافعة لدى الفرد لتحقيق العدل، ودفع الظلم عن الإنسان في قوّة العقل لديه. وفي جانب النفس، لمّا كانت النفس من صفاتها التي وصفت بها: الظلم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]،

فاحتاج الأمر معالجة أكبر الأخلاق السيئة الدافعة للظلم، وهي: الكبر[1] والشحّ[2] والغضب، وكذا الظلم نفسه كخُلُق.

إصلاح النفس ببناء علو الهمة

وفي جانب البناء للنفس يكون الخلق المختار هو: علو الهمة وشرف النفس وكِبَرُها، فالنفس الشريفة العلية تدور مع مكارم الأخلاق وعوالي الأمور، لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالخيانة. ومتى ما هانت النفس قبلت ذلك وغيره من الدناءات، فإن كل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها[3]. ولمّا كانت هناك خشية من أن يكون بناء علو

(١) قال ابن القيم: (أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة ... فالفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة، وأن يحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر) [الفوائد: ص٤١٩].

(٢) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والشّحّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا. وإيّاكم والظلم، فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة» أخرجه أحمد (٦٧٩٢)، وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٣) انظر: كلام ابن القيم بتمامه في (الفوائد ٣٤٠-٣٤١).

واختيارنا لعلو الهمّة في أن تكون القيمة البنائية الأعلى لصلاح النفس، استئناسًا بما ذكره ابن القيم (رحمه الله)، بقوله: (أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع وعلو الهمّة ... وأمّا الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروء والعفّة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال، والإيثار وعزّة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والإخلاص والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الاشتغال بما

الهمّة في الإنسان بدون توازن قد يصل به إلى درجة الكبر والترفع والغرور بالنفس، احتاج إلى خلق حمائي يضبط هذا البناء، لا يمنع من ارتفاعه، ولكن يجعله ارتفاعًا راشدًا متّزنًا، كان الاختيار لخلق خشية الله سبحانه، الذي يُوجِد في النفسِ التواضعَ مع العلم؛ لأنّ خشية الله عزّ وجلّ هي: حبٌّ لله، مع هيبةٍ له سبحانه، تدفع النفس دائمًا لاستشعار الحياء من الله عزّ وجلّ. وهي أعظم الأسباب المعينة لبناء التواضع في النفس.

صلاح النفس في تعاملها مع الآخرين ببناء خلق الوفاء وخلق التعاون

إنّ الأخلاق السِّتة [العدل - مراقبة الله - محبة الله - الخوف من الله - علو الهمة - خشية الله] المقصود منها: صلاح داخل الإنسان لتهيئته لصلاح حركته الذاتية، ولمعالجة النفس أيضًا نحتاج إلى خُلقين بنائيين يُهيئان النفسَ للتعامل مع الآخرين، وهما خلقان فطريان، لكنهما يحتاجان إلى نماء وعناية، وهما: خلق الوفاء والتعاون.

إنّ كل عمل مشترك بين اثنين هو في حقيقته عقدٌ بينهما، فلإنجاز مقتضى العقد يحتاج منهما إلى خلق الوفاء، وإلى خلق التعاون حتى ينجز ويتحقق. وبفقد هذين الخلقين لا يتصور وجود عمل مشترك بين اثنين، فالحاجة مُلحة لتنمية هذين الخلقين وتوجيه تفعيلهما بصورة صحيحة. فهذا ما يتعلق

لا يعنيه وسلامة القلب عن تلك الأخلاق المذمومة - ونحو ذلك، فكلّها ناشئة عن الخشوع وعلوّ الهمّة) [الفوائد: ٤١٩].

بصلاح الداخل للإنسان، ونعبّر عنه بقيمة خلقية أعلى، وهي: التقوى[1].

التقوى تشمل جميع إصلاح العقل والنفس

وأهم ما نرجوه بهذا البناء الداخلي هو: القابلية التامّة للتلقي من الوحي، والتعامل مع أوامره بالاحترام، وقابلية الخضوع له، ومع معارفه بأنها الحقّ واليقين، فهذا ما يتعلق بالصلاح الداخلي للفرد.

صلاح اللسان بذكر الله والصدق في الحديث

فإذا نظرنا إلى صلاح عمل الجوارح، فلأهمية اللسان وكونه هو المفصح عمّا في القلب، ويظهر عليه اختيارات النفس، وكون صلاحه ذا تأثير على صلاح الإنسان، كما أن صلاحه متأثرٌ بصلاح داخل الإنسان، لذلك أفردناه لوحده من بين الجوارح، وجعلنا لصلاحه خلقين، هما: ذكر الله، والصدق في الحديث.

صلاح الجوارح ببناء خلق طاعة الله، وخلق المروءة

وأمّا بقيّة الجوارح، فلما كان خضوعها للأعمال الصالحة مرده للوحيّ، وما جاء فيه من أوامر ونواهي عبادية كالصلاة والحج، أو توجيه لحركة طبيعية كطريقة الأكل والنوم والمشي، أو تعاملية كالبيع والشراء وهكذا، اخترنا لها خلق:

---

(١) قال ابن القيّم: (والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبيّ ﷺ: «التقوى ههنا»، وأشار إلى صدره) [الفوائد: ٢٠١].

طاعة الله، المتضمنة: فعل المأمورات، وترك المنهيات(١). وإن كنّا نريد في هذه المرحلة العناية والتركيز على الواجبات من المأمورات، والكبائر وصريح التحريم من المنهيات. ويدخل في طاعة الله عزّ وجلّ: طاعة رسول الله ﷺ؛ لأن طاعته ﷺ من طاعة الله عزّ وجلّ، قال الله سبحانه آمرًا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**»(٢). ولفظ الطاعة من حيث اللّغة يدخل فيه طاعة الله، وطاعة غيره، فتقييدنا الطاعة بلفظ الجلالة ليدخل فيها طاعة الله عزّ وجلّ بالأصالة، ثم طاعة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنها من طاعة الله، ثم طاعة غيرهما من وليّ الأمر والوالدين والمسؤول بقيد أن تكون طاعتهم في طاعة الله عزّ وجلّ.

ولما كان الناس قد يتعارفون على أمور في حياتهم وتعاملهم [مردّها إلى محاسن الأخلاق وجميل العادات]، فإن كانت موافقة للأحكام الشرعية التي أفادتها الأدلة، فلا مانع من اعتبارها وقبولها وإلاّ فردّها. فالإسلام إنما جاء لإصلاح

---

(١) قال الكفويّ: (الطاعة فعل المأمورات ولو ندبًا، وترك المنهيات ولو كراهةً) [الكليات: ٥٨٢]، وقال: (والطاعة تستعمل لموافقة أمر الله، وأمر غيره).

(٢) رواه البخاريّ (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

ما فسد من أمر الناس، فلم يكن من طبعه نسخ عادات صالحة، بل ما كان منها كفيلاً بالمصالح أقرّه، واعتبره من شريعته، فاخترنا لأجل هذا: المروءة خُلقًا لتحقيق هذا الهدف، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حدّ المروءة استعمال ما يُجمّل العبد ويُزيّنه، وترك ما يُدنِّسه ويشينُه)[1].

وقال المقري: (المروءة آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات)[2].

(١) مدارج السالكين (٢/٣٦٦).

(٢) نضرة النعيم (٨/٣٣٧٣).

ثانيًا: القيم الأخلاقية المعنية بصلاح تعامل الفرد مع أقرانه من الناس.

تبيَّن أن سنة الله في الاجتماع والافتراق، هي من أعظم السنن تأثيرًا على هذه الأمة حتى أن هلاكها كامن في عدم المعالجة الصحيحة من الأمة لهذه السنة ويتحقق فيهم قول الله عز وجل في الحديث القدسي: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا**»(١)، والتحذير من الاختلاف والافتراق تعددت فيه الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران]، وكذلك تعددت فيه أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك قوله: «... **ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا؛ فهلكوا**»(٢).

ما من شك أن ميادين الاختلاف متعددة باعتبار القضايا وباعتبار الأشخاص والكيانات، وإنما الذي يعنينا الاختلاف بين الأفراد بعضهم مع بعض، وفيما بين الكيانات المجتمعية

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) رواه البخاريّ (٢٤١٠).

مما يؤثر على سلامة الحراك المجتمعي، فيوجد الفرقة والشحناء والتباغض.

لقد جعلت شريعة ربّ الأرباب محور المعالجة للاختلاف بين أفراد المجتمع كامنٌ في الاجتماع، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]، وأهم محاور الاجتماع صحة علاقات أفراده بعضهم مع بعض بأن تحقق التعامل المرضي لكل فرد حين يتعامل مع الآخرين، لا شك أن العلاقة بين الأفراد متعددة المجالات، فعلاقات قانونية تنظيمية، وعلاقات أخلاقية اجتماعية، والذي نعنيه العلاقات الأخلاقية الاجتماعية، فإن كل عاقل يدرك أن مما يضعف المجتمع والاجتماع أن تكون علاقة أفراده تسودها المشاحنة والبغضاء، أو أن تكون علاقة أفراده محكومة بالطبقية والاستعلاء، فذلك هو الطريق للتفكك والضعف، فالمقصود بناء علاقة تفضي إلى الوحدة والتراضي والأمن، ولو كان هناك تنوع وتعدد في وجهات النظر حول بعض القضايا الفرعية[(١)].

---

(١) ذكر الذهبي في (سير أعلام النبلاء ١٦/١٠) في ترجمة الإمام الشافعي عن الحافظ أبي موسى يونس بن عبد الأعلى الصّدفي المصري، قال: (ما رأيت

وقد تواترت التوجيهات الشرعية، وتعددت الأحكام الشرعية التي مؤداها حفظ المجتمع من خلال الحفظ على العلاقات بين أطرافه، وبالنظر في الأدلة الشرعية لمعرفة الكليّات الخلقية في تحقيق الاجتماع وبناء العلاقات المرضية في المجتمع، والتي يُراعى فيها التدرج في البناء. نجد أن العلماء - استنادًا إلى الأدلة - ذكروا عددًا من الكليات الخلقية المحققة لهذا المقصود العظيم، والذي نختاره مما ذكروه أربعًا منها، نجد أنه بتحقيقها نكون قد بنينا أساسًا متينًا للاجتماع في المجتمع المسلم، ونريد كلّ منها أن يحقق أمرًا يُبنى عليه ما بعده مراعين التدرج بالمكلّف، وهذه الكليات الخلقية الأربع «القيم» هي:

١. علاقة الأخوة في الدّين.
٢. علاقة التعامل بميزان العدل.
٣. علاقة التكافل.
٤. الاتحاد.

وقد سبق التدليل لكل واحدة منها.

فكل واحدة من هذه الكليات يمثل الكلية القيمية الأخلاقية الأساس لبناء التعامل الصحيح بين أفراد المجتمع.

أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة).

قال الذهبي: (هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام، وفِقه نفسه، فما زال النُّظراء يختلفون).

الكليــــــة الخلقيـــــة الأولى: الأخـــــوة الإســـلامية.

الكلية الخلقية الأولى: الأخوة الإسلامية:

فبناء الأخوة الإسلامية يتحقق في النفس القابلية بأن تكون رابطة يشرف الإنسان بالانتماء إليها، وينشأ أيضًا عنها الاحترام والتقدير لمن ينتمي إليها، ثم الحب له والتوافق معه في العقيدة والعمل الصالح، ثم حسن التعامل عند الاجتماع في ميادين العمل والتعامل، ثم التناصر والتناصح، والخلق الأساس الذي يُسهم في بناء هذه العلاقة ويُكلف به الفرد خلق السماحة المعبرة عن السهولة في التعامل فيما بين الناس بعضهم مع بعض، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى، سمحًا إذا قضى**»[1]، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]، قال ابن سعدي: (فهم للمؤمنين أذِلّة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم، وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم)[2].

---

(١) أخرجه ابن حبّان (١١/٢٦٧)، وصححه الألبانيّ، وهو في البخاريّ (٢٠٧٦) بلفظ قريب.

(٢) تفسير السعدي (٢٣٦).

الكلية الخلقية الثانية: التكافل

الكلية الخلقية الثانية: التكافل:

اخترنا التكافل القيمية الثانية لتحقيق الاجتماع، والخلق المحقق له: خلق المواساة، وهو خلقٌ له بُعْدٌ فطريٌ؛ فإن من الفطرة التي خلقنا الله عليها انفعال أنفسنا برحمةٍ ورأفةٍ عند مشاهدة الضعف والحاجة والعَوَز على غيرنا من الناس لاستشعارنا تألم المحتاج والمكروب، فالمواساة كفاية حاجة محتاج الشيء ممّا به صلاح حاله على قدر الطاقة (١).

الكلية الخلقية الثالثة: التعامل العادل

الكلية الخلقية الثالثة: التعامل العادل:

ففي جانب التعامل مع الخَلْق فيما يتعلق بالحقوق المتبادلة اخترنا التعاملَ العادلَ لضبط تعاملات الناس بعضهم مع بعض، ولتحقيق التعامل العادل المرضي اخترنا الإنصافَ، كخلق يحقق الحدَّ الأدنى الواجب من العدل عند التعامل مع الآخرين، حيث إن الإنصاف هو: أن يعطي الإنسانُ الحقَّ الذي عليه للآخرين دون إتعابهم، كما يحبّ من الناس أن يعطوه الحقَّ الذي له عندهم دون إتعابٍ لهم (٢).

---

(١) انظر: النظام الاجتماعي في الإسلام لمحمد الطاهر ابن عاشور (١٢٨). قال ابن مسكويه: (المواساة: معاونة الأصدقاء والمستحقين، ومشاركتهم في الأموال والأقوات) [تهذيب الأخلاق ٣١/٣].

(٢) قال ابن القيم: (إذا أحبّ الرّجل أن يُنْصِفَ من نفسه؛ فليأتِ إلى الناس الذي يُحبُّ أن يُؤتى إليه) [الفوائد ٤٧٧]. وانظر: نضرة النعيم (٥٧٦/٣).

الكليـــــة الخلقيـــــة الرابعـــــة: الاتحـــــاد

الكلية الخلقية الرابعة : الاتحاد :

وبها يتحقق كمال هذه الكليّات القيمية، وهو الثمرة من بناء هذه الكليات الأربع، فالاتحاد هو الصورة الكلية للمجتمع المتخلق بأخلاق الإسلام، فأصبح كالجسد الواحد، تراه عديد الأعضاء والمشاعر، ولكنه متحد الإحساس متحد العمل[(١)]. كما وصفهم رسول الله ﷺ بقوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[(٢)]، فالسمة العامّة لأعمالهم: الصلاح، والسمة العامّة لتعاملهم: التعاون والتراضي. وأمام هذه الكلية اخترنا خلق النصيحة، ليكون هو الخلق الأساس الذي نتجه به نحو تحقيق الاتحاد مبتدئين بالفرد حين يتعامل مع أخيه في داخل المجتمع.

فخلق النصيحة يُوجِد في صاحبه الرغبة في إرادة الخير بالآخرين من إخوانه بوجوه الخير إرادةً وفعلاً، قال ابن الأثير: (النصيحة كلمة يُعبّر بها عن جملةٍ هي إرادة الخير للمنصوح له)[(٣)].

وقال الرّاغب: (النصح: تحرِّي فِعْلٍ أو قولٍ فيه صلاح صاحبه)[(٤)].

(١) النظام الاجتماعي للطاهر ابن عاشور (١٢٥).
(٢) رواه مسلم (٢٥٨٦).
(٣) النهاية (٥/٦٢).
(٤) المفردات (٤٩٤).

وقد تكون النصيحة في أول مراحلها أن المؤمن ينصح من طلب منه النصيحة، ولا يبخل عليه بها، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حقّ المسلم على المسلم ستّ**». قيل: ما هنّ يا رسول الله؟ قال: «**إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فعُدْهُ، وإذا ماتَ فاتبعه**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا استشار أحدكم أخاه فلينصحه**»(٢).

فنجد أن هذه الأخلاق القيمية الأربعة تدرجنا من خلالها مبتدئين ببناء خلق السماحة الذي يحقق حسن التعامل مع احترام، ثم انتقلنا إلى الإنصاف ليتحقق للإنسان الطمأنينة بأخذ حقّه دون معاناة، وتوجيه له بأن يعطي الحق الذي عليه بدون إتعاب صاحب الحق، عندما يتعامل مع أفراد المجتمع الآخرين، ثم انتقلنا إلى المواساة حين استشعر الإنسان أن لإخوانه في مجتمعه حقًّا عليه، لا بدّ أن يشاركهم مصابهم بدفع ما نزل بهم قدر طاقته وجهده، ثم انتقلنا إلى المبادرة بالنصيحة رغبة في صلاح عمل الآخرين كما يحب الصلاح لعمله. وهو تدرجٌ منطقيّ للنفس، وهي تترقى في ميدان البذل والاجتماع مع من حولها من أفراد مجتمعها، أو من يشاركها الانتماء لكيان واحد.

---

(١) رواه مسلم (٢١٦١).

(٢) رواه أحمد (١٥٤٥٥)، وصححه الألبانيّ.

ثالثًا : القيم الأخلاقية المعنية بصلاح تعامل الفرد مع الكيان وممتلكاته .

العلاقة بين الإنسان والمخلوقات قائمة على التسخير

لقد حددت شريعة الله العلاقة بين الإنسان ومحيطه المادي، وبينت أن العلاقة قائمة على التسخير، فنجد في عدد من السور المكية الإعلام بهذه العلاقة، فقال تعالى في [سورة إبراهيم]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وقال تعالى في [سورة النحل]: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ

شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ
وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ
لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي
ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ
وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقد كان العلماء يُسمُّون سورةَ النحل بسورة النِّعَم، فالله خلق ذلك مسخرًا للإنسان حتى يؤدي ما أمر به وخلق من أجله، وهو تحقيق عبودية الله.

لقد أباحت شريعة الله بموجب هذا التسخير إفادة الإنسان من محيطه، ولكن لأن هذه الشريعة شريعة الاعتدال حذرت أن يتعامل الإنسان مع محيطه بالإفساد بأي نوع من الإفساد، وأباحت له الإفادة بالتوازن، وسنة الله في الترف والمترفين أشد ما يكون ارتباطها بالممتلكات والأموال وسوء التصرف فيها، والترف أظهر ما يكون في العبث بالأموال والممتلكات الذي يؤدي إلى إتلافها، ويظهر في الإسراف، ويظهر في التعدي

الذي يخرجها عن صلاحها الأول، سواء بالتلويث لها الذي يمنع الإفادة منها، أو الإتلاف بالعبث فيها، ولا يعني معالجة الترف والإسراف والعبث في الممتلكات عدم الحرص على نمائها، بل المطلوب شرعا نماؤها، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعا فيأكل منه طير، ولا إنسان إلا كان له به صدقة**» (١)، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**» (٢)، وحذرنا الشرع من الإفساد، فقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة]، وفي وصية الصديق أبي بكر لأحد قوّاده حين خرج للغزو: (لا تقطع شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تغرقنه) (٣)، وحذرنا من إتيان الأموال للسفهاء وإن كانت هي أموالهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾﴾ [النساء].

---

(١) رواه البخاريّ (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣).

(٢) رواه البيهقيّ في (الشعب ٢/ ٩١)، وصححه الألباني.

(٣) الموطأ (٩٦٥).

الكليات الأخلاقية لتفعيل سنة الله في الترف والمترفين

لقد ذكر العلماء عددًا من الكليات القيمية الأخلاقية التي تعالج بها سنة الترف والمترفين في جانب التعامل مع الممتلكات، ونختار منها أربع كليات أخلاقية قيمية، واحدة منها في جانب البناء، وثلاث منها في جانب الحفظ والحماية، ولأن البناء هو الأصل ذكرنا تحت كل كلية أخلاقية قيمية في الحفظ والحماية خلقًا بنائيًا، يتحقق عند بنائه السلامة ممّا تضمنته الكلية الحمائية، رغبة في انطلاق النفس مع العمل والبناء، لأن القاعدة التي سرنا عليها أن معالجة الخطأ تكون بالإشغال بالصواب.

فعندنا أربع كليات أخلاقية قيمية لمعالجة سنة الترف والمترفين فيما يتعلق بجانب الممتلكات.

الكلية الخلقية الأولى: التنمية

الكلية الخلقية الأولى: التنمية.

والمراد إنماؤها بالطريق المشروع، فيدخل فيه الحفاظ على صلاح الممتلكات، ثم الإسهام في زيادة هذا الصلاح. والخلق المختار للبدء به مع الفرد هو خلق الأمانة، فالأمين لغة هو الحافظ، وقال الكفوي: (الأمانة كل ما يؤتمن عليه من أموال وحُرَم وأسرار فهو أمانة)[١].

فالأمانة تشتمل أمورًا منها: (اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه، وعدم التفريط به والتهاون بشأنها)[٢].

(١) الكليات (١٧٦).

(٢) نضرة النعيم (٥٠٩).

الكلية الخلقية الثانية: حفظ الممتلكات من الإسراف

الكليـة الخلقيـة الثانيـة : حفـظ الممتلكـات مـن إتلافهـا بالسرف.

إن معنى الإسراف عظيم القبح، فهـو كمـا عرَّفـه الكفـويّ: (صرفُ الشيءِ فيما لا ينبغي زائدًا على ما ينبغي)[1]، فهو أشدّ سوءًا من التبذير؛ لأن التبذير هو تجاوز الحد في مـا هـو حـق، والله عز وجل لا يحب المسرفين والمبذرين إخوان الشياطين.

ولِمَا ذكرتُ من أنّ القاعـدة في الشـريعة: أن البنـاء أصـلٌ، والمدافعة فرعٌ: أردنا أن نعالج قضية السرف ببناء خلق ممـدوح وجـوده ذو أثـر بـارز في منـع الإسـراف، فكـان اختيـار خلـق التوسط والاعتدال.

فمـادة [و س ط] في اللغـة تـدل علـى العـدل والنِّصْـف، وأعْدَلُ الشيء أوسَطُه ووَسَطُه، قال الراغب: (التوسط: القصـد المصون عن الإفراط والتفريط)[2].

وهذا ما أمرنا الله به عند التعامل مع الأموال، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]، وهما توجيهان في

(١) الكليات (١١٣).
(٢) مفردات القرآن (مادة: وسط).

سورتين مكيتين، وفي الحديث قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنّ الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعًا وهات، وكره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**[1].

الكلية الخلقية الثالثة: حفظ الممتلكات من العبث والتعدي

الكلية الخلقية الثالثة: حفظ الممتلكات من إتلافها بالعبث والتعدي.

فإن النفس يصل بها الانحراف والدناءة حتى يسعى صاحبها إلى إتلاف المال لا لشيء إلا للإتلاف، وهو دليل قلة العقل وقلة التمييز، وكذا يدلّ على خسَّة النفس ودناءتها، وكما سبق في الكلية السابقة أردنا أن نعالج قضية إتلاف الممتلكات بالعبث بخلق ممدوح وجوده يرتقي بالعقل ليميز التعامل نحو الممتلكات، ويرتفع بالنفس من الدناءة إلى علو الهمّة، والخلق المختار هو الحكمة.

واختيارنا لهذا الخلق في مقابل الإتلاف بالعبث؛ لأن مادة [ح ك م] في اللغة: (تدل على المنع، أو المنع للإصلاح)[2]، ومن هذا الأصل أخذ أيضًا: الحُكْم في معنى المنع من الظلم، والحكمة لأنها تمنع من الجهل، واستحكم الرجل إذا تناهى عمّا يضره في دينه ودنياه.

(١) رواه البخاريّ (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).
(٢) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٩١)، والمفردات للراغب (١٢٦).

الكلية الخلقية الرابعة: الحفظ من التلوث

أما الكلية الخلقية الرابعة فنأخذها من خلال النصوص الآمرة بالطهارة في حياتنا كلها، من طهارة الجسم إلى طهارة الثوب والمنزل، وهكذا، فتدخل المرافق الخاصة والعامة في هذا التوجيه، فمن أول ما نزل على رسول الله ﷺ قول الله عز وجل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر]، قال أبو السُّعود: (وهو أوّل ما أمر به عليه الصلاة والسلام من رفض العادات المذمومة)[1].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة] كما أمر بعدم تلويث المرافق العامة، فقال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل**»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه**»[3]، فهو توجيه لنا بالحفاظ على البيئة والمكان الذي نتحرك فيه بتطهيره وعدم تلويثه حتى لا يعود ذلك علينا بالضرر، وحتى تستمر الإفادة منه لنا ولغيرنا.

فالكلية الخلقية القيمية الرابعة التي نقصدها: حفظ البيئة من التلوث، والخلق الذي نُفعّله لذلك هو خلق الطهارة،

---

(١) تفسير أبي السعود (٩/٥٥).
(٢) رواه أبو داود (٢٦)، وحسّنه الألبانيّ.
(٣) رواه البخاريّ (٢٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢).

فمادة [ط هـ ر] في اللغة: (تدل على نقاء وزوال دنس، والتطهر: التنزه والكف عن الإثم وما لا يجمل، ورجل طاهر الثياب: أي منزه) [1].

فبهذه الأخلاق الأربعة [الأمانة، التوسط والاعتدال، الحكمة، الطهارة] توجهنا بالفرد نحو الممتلكات والمرافق العامة ليتعامل معها بالحفاظ على الصلاح الذي فيها، و الاجتهاد في إنمائه بتنمية خلق الأمانة في نفسه، الدافع إلى الحفظ والصيانة، ثم توجهنا به إلى التوازن عند استخدام الأموال والممتلكات، فلا يتسبب في إتلافها بالعبث والتصرف الطائش ببناء خلق الحكمة، التي تجعله يسأل نفسه دائمًا: هل من الحكمة أن أفعل هذا؟، ثم توجهنا به إلى عدم الإسراف بالأموال والممتلكات ببناء خلق التوسط والاعتدال، الذي هو سمة النفوس السوية، وهو سمة الأمة المحمدية، ثم توجهنا به إلى عدم تلويث الأماكن وتدنيسها بما يعود عليه وعلى إخوانه بالضرر ويمنع من الإفادة منها، وذلك ببناء خلق الطهارة.

---

(١) لسان العرب (٤/٥٠٥-٥٠٦).

رابعًا: القيم الأخلاقية المعنية بصلاح إدارة الرّاعي للكيان.

لقد سبق أن المسؤولية تنقسم إلى قسمين: مسؤولية فردية، ومسؤولية جماعية، فكما أن الإنسان مسؤول عن تصرفات نفسه، فهو يتحمل أيضًا مسؤوليةً نحوَ إصلاح من حوله، فالشريعة تقصد أن يكون أفراد المجتمع كل واحد منهم يشعر بالمسؤولية إزاء مجتمعه، فالشخصية السلبية التي لا يعنيها الفساد من حولها ليست نتاج للتربية الشرعية الصحيحة، فكما وضعت الشريعة المقومات لصلاح هذا الإنسان في حركته الذاتية وفي حركته المجتمعية، فإنها أناطت رعاية ذلك إلى الناس من حيث التربية والتعليم، ومن حيث الإنكار على من خالفه، وإرجاعه إلى الحق، ومن حيث البلاغ العام للناس، ومن حيث المحافظة على ذلك كله، وهي مسؤولية موزعة على الناس كل بحسب موقعه، فالمجتمع الصالح ضرورة قيامه بقيام الجميع بالمسؤوليات المناطة بهم، فالراعي من أنيطت به مسؤوليات محددة نحو فئة من الناس أو شيءٍ من الممتلكات، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن**

الناس مكلفون بإصلاح بعضهم البعض

الرّاعي من أنيطت به مسؤوليات محددة

رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته» (١).

صلاح الرعية هو الكلية العليا المطلوبة من الراعي

إن الصلاح هو المقصود الذي تدور عليه الكليات الخلقية المعنية بصلاح الراعي على أي رعية يتولاها، فالأنبياء ذكروا أن هذه غايتهم من دعوتهم، قال تعالى عن شعيب قوله عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال الله تعالى حاكيًا قول موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومن الكليات الخلقية للراعي والمحققة لذلك أربعة، من خلالها يدير الراعي من تحت رعايته متجهًا في تفعيلها نحو الصلاح لمن تحت رعايته.

الكليات الخلقية في إدارة الرعية أربع

الكلية الأولى: التمكين للرعية

الكلية الخلقية الأولى: التمكين، أي: العمل على تمكين من تحت رعايته بالتربية والتعليم، والتزكية للنفس، والتعويد للجوارح، فإذا اتجهت حركة الفرد نحو مقتضى العلم الشرعي الصحيح، فلا ينبغي على الرّاعي أن يكون عائقًا أمام حركة الفرد، وهو يحقق هذه المرادات الشرعية منه، سواء فيما يتعلق بنفسه وذاته، أو ما يتعلق بتعامله مع من حوله، وإنما المطلوب منه بناء الإرادة القوية، ثم بإطلاق إرادته في هذه الحركة الموزونة بهذا التوجه واضح المعالم، فهو ومَن تحت ولايته عبيدٌ لله عزّ وجلّ، مأمورين بتنفيذ أمره واجتناب نهيه.

---

(١) رواه البخاريّ (٢٤٠٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٢).

فمتى ما اتجهت إرادة الفرد الذي تحت ولايته نحو تحقيق العبودية، فلا يصح منعه وكبته، ليس إلاّ الترشيد عند الحاجة، فإعطاؤه الحريّة في حركته مطلبٌ شرعيٌّ، متى ما كانت حرية راشدة، متجهةٌ نحو تحقيق غاية الوجود، وهي: عبادة الله وحده. ولا بدّ أن ندرك أن الله سبحانه يكلف عبيدَه مباشرة، فهو يخاطبهم بقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا** ... ﴾، فليس من حقّ أحد أن يظنّ أن هذا الخطاب لا بدّ أن يكون وروده للمكلّف عن طريقه، وإنما دور العلماء - وكذا دور المربّين - الإعانة على إفهام المكلّف ما يريد الله عزّ وجلّ منهم، لا أن طاعتهم ملزمة لذاتها، وهكذا يقاس دور الوالدين، وهكذا يقاس دور كل مسؤول. والله سبحانه خلق الإنسان مهيئًا لذلك، فخلقه حارثًا همّامًا أي: مريدًا فاعلاً، فالرعاية الراشدة لمن تحت ولايتك بالإعانة على بناء العقل والنفس على قابلية التلقي عن الوحي والاحترام لأوامره، ثم بتقوية الإرادة ورفع مستوى العزم حتى يسيّر الجوارح وَفق الوحي.

في الوحي الله سبحانه يكلف عبده مباشرة

إنّ المنطلق لهذه الكلية وهي التمكين يبدأ من تقوية الإرادة والانتقال بها من مرتبة الإرادة العامة إلى العزم الصادق وهي المرحلة التي يتحول عندها القناعات إلى أعمال، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران].

فالتمكين هو الكلية الخلقية (القيمة العليا)، والإرادة القوية العازمة هي: الخلق الموصل إليها.

الكليـة الخلقيـة الثانيـة: التوزيـع العـادل

الكليـة الخلقيـة الثانيـة : التوزيـع العـادل، وذلـك بإعطـاء الفرص العملية بالتساوي بين مَن تحت رعايته، وكذا في التحفيز، وكذا في المكافأة عند إنجاز العمل بنفس الإتقان، وكان اختيار خلق المساواة ليكون هو الخلق الأساس الذي من خلاله يؤسس لكلية التوزيع العادل مع إدراك أن المساواة لا تعني إعطاء البليد كما يُعطى الذكي، ولا أن يُعطى المحسنَ كما يُعطى المقصر، وإن خلق المساواة أشمل في المعنى ممّا ذكر، ولكن هذا الذي نريده من تفعليها في مواجهة السنن الإلهية محل الدّراسة، فيسهم ذلك في معالجة سنة الله في الظلم والظالمين، وكذا سنة الله في الاجتماع والافتراق.

الكليـة الخلقيـة الثالثـة: الإحسـان

الكلية الثالثة : الإحسان، أي: أن تكون كلية الإحسان هي ميزان قبول الأعمال، فالكلية الخلقية الشرعية الأعلى التي يقاس عليها العمل قيمة الإحسان، فهي تتضمن تفعيل القلب لمراقبة الله واستحضار معيته الدافعة لإتقان العمل وإنجازه على أحسن صورة، فالله يحبّ إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه، والخلق الموصل إليها والذي يحتاجه الرّاعي للكيان هو خلق الرقابة، فيتخلق بها الراعي مستشعرًا أن الله مراقبه في مسؤوليته تلك فمن إتقانه أنه يراقب من تحت رعايته سعيًا في صلاحهم، ولا يظهر منه الإهمال والتفريط في حقهم، وأن تكون الرّقابة لمعرفة جودة الأداء، وكذا بمعرفة الحقيقة عند وجود الخلاف بين مَن تحت رعايته. وكذا المعرفة من صاحب العمل الحقيقي

فيكافأ حتى لا تنصرف المكافأة عنه، فتذهب للمتسلقين، فلا يتحقق ميزان العدل. فالكلية القيمية الإحسان، والخلق الرئيس الرقابة.

الكلية الخلقية الرابعة: النصرة

الكلية الخلقية الرابعة: النصرة، لما كان الراعي على الكيان يحمل مسؤولية الإصلاح لكيانه ولكل من فيه، وأن من تحت ولايته يشعرون بحرصه على مصلحة كل واحد منهم، وحرصه على الكيان، فهو لن يجامل أحدهم على مصلحة الكيان، ولكن أيضًا لن يتخلى عنه عند الخطأ؛ لأن صلاحه واستقامته تهمّه، كما أنه لا يتركه يفعل الخطأ، فهو يحقق وصية النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»[(١)].

هذه المعاني التي تتضمنها النصرة، الطريق المحقق لها يبتدأ بخلق المحاسبة حين يقوم الراعي بهذه المهمة استشعارًا أنها من النصرة لمن تحت ولايته، حتى لا يستمر العمل على الخطأ فيؤثر على الفرد والكيان تأثيرًا تصعب المعالجة عنده، ويجد الفرد في نفسه قابلية لهذه المحاسبة؛ لأن المقصود منها نصرته، فتتضمن المحاسبة: إقرار الصواب إن وجد، أو التنبيه على الخطأ لتصويبه، والجميع مستشعر أن المحاسبة على

(١) رواه البخاريّ (٢٤٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٤).

العمل وتصويب الخطأ بعد اكتشافه في الدنيا أهون من إدراكه واكتشافه عند الوقوف للحساب الأعظم بين يدي الله سبحانه، فتكون المحاسبة بهذا التصور مطلبًا لدى الطرفين الراعي والرعية، لا أنها حمل ثقيل عليهما، فهي مبرأة من التجريح والتشهير وإبراز السلطة والتعالي، وإنما هي نظرة رحمة وحزم تقصد الوصول للصواب نصرة للمرعي، وحفاظًا للكيان، وسلامة للراعي.

فهذه أربع كليّات أخلاقية مطلوبٌ من كل راع أن يتعامل بها مع من تحت رعايته، ويحققها من خلال أربعة أخلاق.

فهذه مجموعة الكليّات الخلقية المختارة ذات الارتباط بالسنن الإلهية سابقة الذكر، فالعمل على بنائها لدى أفراد المجتمع على طريقة تتجه بها نحو معالجة السنن الإلهية.

وإتمامًا لتحقيق المقصود وإحداث دافع للإنجاز، وتحويل المقاصد والإرادات إلى أعمال، فجرى اختيار مصفوفة خلقية من قيم العمل يحتاجها الفرد لدافعية الإنجاز وهي ستة أخلاق: الإتقان - المبادرة - الصبر - الحزم - النظام - الاستدامة، وبهذا نجد أننا أمام خمس مصفوفات قيمية ملخصها كما في الجدول:

م/ نوع المصفوفة القيمية	الكليات الأخلاقية	الخلق الرئيس		أبرز الأخلاق السيئة
١ـ المصفوفة القيمية الأخلاقية المعينة على صلاح حركة الفرد	الاستقامة	التقوى	العدل = قيمة بنائية مراقبة الله = قيمة حمائية	الكبر
			محبة الله = قيمة بنائية الخوف من الله = قيمة حمائية	الشهوة
			علو الهمة = قيمة بنائية خشية الله = قيمة حمائية	دناءة الهمة
			الوفاء = قيمة بنائية التعاون = قيمة بنائية	الكذب
		طاعة الله		
		المروءة		
٢- المصفوفة الأخلاقية القيمية المعينة على صلاح تعامل الفرد مع إخوانه من الناس	الأخوة	السماحة = قيمة بنائية		الغلظة
	العدل	الإنصاف = قيمة بنائية		الغضب + الظلم + الشح
	التكافل	المواساة = قيمة بنائية		الشح

	الاتحاد	النصيحة = قيمة بنائية	الحسد
٣- المصفوفة الأخلاقية القيمية المعينة على صلاح تعامل الفرد مع الكيان	التنمية	الأمانة = قيمة بنائية	الخيانة
	الحفظ من الإسراف العبثي	التوسط والاعتدال = قيمة بنائية	التبذير
	الحفظ من التلف	الحكمة = قيمة بنائية	البطر
	الحفظ من التلوث	الطهارة = قيمة بنائية	دناءة الهمة
٤- المصفوفة الأخلاقية القيمية المعنية بإصلاح إدارة الكيان	التمكين	الإرادة = قيمة بنائية	الكسل
	التوز يع العادل	المساواة = قيمة بنائية	الظلم
	الإحسان	الرقابة = قيمة حمائية	الإهمال
	النصرة	المحاسبة = قيمة حمائية	التخاذل

٥- مصفوفة قيم العمل الأخلاقية		الاتقان = قيمة بنائية المبادرة = قيمة بنائية الصبر = الحزم = النظام = الاستدامة =	التباطؤ التكاسل الفوضى

والمخرج العام الذي نريده من وراء هذه المصفوفة: هو شيوع التعامل المرضي لدى الشريحة المستهدفة.

صلاح الأفراد، وصلاح البناء المجتمعي

بعد أن تبيَّنت لنا السنن الإلهية المختارة لهذا النموذج، وما يقابلها من كليات خلقية (قيم أخلاقية)، فالسؤال الآن: ما هي الطريقة في تحويل ذلك إلى برنامج عملي؟ وكيف يكون ذلك؟ وهذا ما سأبينه في هذا المبحث.

لمّا كان أي مجتمع إنساني هو عبارة عن مجموعة من الناس كوّنوا باجتماعهم كُلاًّ ملتئمًا، الفرد هو أحد أجزائه وأحد مكوناته؛ فمن البَدَهي لإصلاح ذلك المجتمع، ولتحقيق أي هدفٍ فيه البدءُ بإصلاح الأفراد وبناء مقومات الصلاح فيهم وَفق المحتوى القيمي المختار، فبحصول ذلك يتكون المجتمع من أفراد صالحين، ثمّ هم محتاجون لأمر ثانٍ، وهو: صلاح البناء المجتمعي المتضمن الهيئة المجتمعية التي يبنى عليها المجتمع، وطريقة التعامل السائد والهياكل التي تحتضن الأفراد وغيرها.

إنّ الكثير منّا لا يجادل في أهمية صلاح الفرد وضرورته لصلاح أي مجتمع، ولكن في البناء المجتمعي: هل هو بالضرورة؟ والتي قد تؤثر على استمرار الفرد الصالح في صلاحه؟ ولبيان ذلك أقول:

الاجتماع ضرورة إنسانية

لمّا كان الاجتماع ضرورة؛ لأن الإنسان الموصوف بالضعف لا يمكن أن يؤدّي مهمته في هذه الدّنيا على الوجه الكامل، إلاّ من خلال انضمامه مع أفراد آخرين يمثلون بمجموعهم هيئةً اجتماعيةً، وأن تلك الهيئة الاجتماعية التي تكوَّنت بمجموعهم لا يمكن أن يؤدّي الإنسان الفرد الصالح من خلالها مهمته الصحيحة البنائية التنموية لإعمار الأرض، كما يريد الله، إلا إذا كانت تلك الهيئة الاجتماعية سالمةً من العيوب والآفات الفكرية، والظواهر السلوكية المخالفة لمراد الله من غاية وجود الإنسان - وهي تحقيق العبودية -، ومحفوظة من التفكك والافتراق والنزاع، ومعينة على حركة الفرد من خلالها؛ لتحقيق أهدافه البنائية.

سلامة المجتمع من التفكك والآفات الفكرية معين للفرد في أداء رسالة الحياة

فبقدر الضمانة في معيار السلامة المجتمعية يستطيع الفرد الصالح أن يؤدي مهمته من خلال مجتمعه بيسر وسهولة، وبقدر التخلف عن معيار السلامة المجتمعية تصعب المهمة على الفرد الصالح، ومن ثم يقلّ إنجازه الصحيح الظاهر العلني، وربما يُفقَد، أو يُحجَب في أقلّ الأحوال.

ضعف مقومات السلامة في المجتمع يضعف انتاجية الفرد

إن الناس سوف تدفعهم الحاجة والاضطرار (الرغبة في التوسع في المصالح، مع العجز والضعف في تحقيقها للنفس بمفردها) أن يتعامل بعضهم مع بعض فليس كل حركة تعامل بين الناس تدل على مفهوم الاجتماع وَفق السنة الإلهية، وإنما يكون التعامل وفق سنة الاجتماع بقيام التعامل المرضي الذي

دوافع عمل الفرد مع مجتمعه

سَيَّرته وأطَّرَته تلك المصفوفة الأخلاقية الشرعية، فمن المهم أن ندرك أن اندفاع الفرد نحو العمل مع مجتمعه له دافعان:

المصلحة الذاتية سبب لعمل الفرد مع مجتمعه

الأول: اندفاعه نحو مجتمعه لتحقيق مصلحة ذاتية فحسب، يعجز عن تحقيقها إلا من خلال مجتمعه وتعاون الناس معه، فهو يعمل مع المجتمع، لا للمجتمع ولكن لنفسه.

الشعور بأن المجتمع على حق سبب لعمل الفرد مع مجتمعه

الثاني: اندفاعه نحو مجتمعه لشعوره بأن مجتمعه على حقٍّ فهم أهل الإسلام الذين يحبهم الله، ويرضى أن تنتمي إليهم، وأن يكون تعاملك معهم، فيندفع نحوهم حبًّا في الحقِّ، ولا يخلو أن يجمع معه استحضار مصلحة ذاتية لا تناقض أصل الحقِّ الذي اندفع له، فهو يعمل مع المجتمع للمجتمع ولمصلحة نفسه أيضًا.

سمات الفرد العامل مع مجتمعه بدافع المصلحة الذاتية

فالأول يعطينا التصور المادي للاجتماع، فإنه انطلق وقام من منظور فردي، يتقصد أفراده الربح المادي والمنفعة الشخصية فحسب، فتظهر السمات التالية على ذلك المجتمع:

- أفراده لا يهمهم إقامة الحياة المجتمعية أساسًا.

- يرى كل فرد منهم أن نفسه كل الوجود، فالحياة بخير إذا كان هو بخير، والعكس بالعكس.

- العلاقة بين أفراد ذلك المجتمع تقوم على المصلحة الذاتية فحسب.

- التنقل في العلاقات للفرد الواحد؛ لأنّ المصلحة المادية لا ترتبط بفرد واحد من كل وجه، وفي كل وقت.

- جفاف العلاقات الاجتماعية، وخصوصًا العاطفية منها.

- يحرص الفرد أن يأخذ ولا يعطي، يكسب ولا يخسر، يكنز ولا ينفق.

- تعم في ذلك المجتمع قيم العمل والقيم التجارية وتقوى، بينما تضعف القيم المجتمعية وقيم التعامل، إلا في ظل تحقيق المصلحة الذاتية.

- تكون عملية البناء للمجتمع رأسية لا أفقية، بمعنى أنّه لا مكان لأصحاب القدرات المحدودة، ولا مكانة إلا الاحتقار والمهانة. وأحد الثمار المُرّة لهذا البناء المنحرف: أن يكون المال دائرًا على فئة محدودة من الناس، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧].

- التعامل مع المثل العليا على أنها خيال وترف فكري، تدغدغ به عواطف البسطاء عند الحاجة.

- يتميز بظهور جرائم بشعة لا تتفق مع الفطر السليمة، وزيادة الجرائم عند أدنى اختلال لرقابة السلطة البشرية.

- ضعف انتماء الفرد لمجتمعه، إلا بقدر مصلحته الذاتية التي ارتبطت بذلك المجتمع.

سمات الفرد العامل مع مجتمعه بدافع أن مجتمعه على حقّ

والثاني يعطينا التصور الصحيح لبداية المجتمع الذي يحقق الأفراد من خلاله عمارة الأرض الراشدة، فتظهر السمات التالية على أفراد ذلك المجتمع:

- الإيمان بالمثل العليا، والعمل تحت رايتها.

- لا يجد الفرد كيانه الحقيقي في لقمة العيش أو شهوة دنيوية فحسب، وإنما يجده في حياة ممتدة حدودها الخلق الكريم، والبذل للآخرين.

- ثراء العلاقات الاجتماعية بكل أنواعها.

- تعمّ ذلك المجتمع قيم التعامل ومكارم الأخلاق.

- قوة انتماء الفرد المجتمعية.

- سعة الأفق لدى أفراد المجتمع.

- البناء المتوازن للمجتمع أفقيًا ورأسيًا، أي: يجد الأذكياء وأصحاب القدرات ما يشبع طموحهم، ولا يهضم أصحاب المقدرات المحدودة نصيبهم.

- قلة انتشار الجرائم، وخفاء الجرائم البشعة المخالفة للفطر السليمة إلا ما ندر.

التوازن والاعتدال أساس في تحقيق الصلاح

ما من شك أن ما ذُكر لا يعني بحال إلغاء مبدأ البحث عن المصلحة الذاتية، ولا يعني إلغاء قيم العمل، ولا يعني كبح جماح الأذكياء ليكونوا مثل البلداء، وإنما هي دعوة للتوازن؛ فإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق في الإنسان قوة لتُعطَّل، وإنما جعل مقصوده في الصلاح متحققًا بالتوازن والاعتدال، ولذا وصف هذه الأمة بالوسط، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد فسر النبي ﷺ الوسط بالعدل، فالاعتدال في الأمور هو الكمال، وهو: إعطاء كل شيء حقّه من غير زيادة ولا نقص، فإن طرفي الأمور مذموم.

أسس حفظ المجتمع

إنّ ما سبق يعطينا تصورًا واضحًا أن إصلاح الأفراد وصلاح البناء المجتمعي كلٌّ منهما ضروري لإصلاح الآخر، ولا يصح الاكتفاء بأحدهما لتحقيق صلاح المجتمع، فالمجتمع هو المحضن الذي يؤدِّي الإنسان من خلاله المهمة التي كُلِّف بها، فأصبح حفظ المجتمع مقصودًا شرعيًا من حيث بقائه وسلامة حركته، وجامع الأسباب في تحقيق ذلك الحفظ للمجتمع أمران:

تجدد الأجيال الصالحة سبب رئيس لحفظ المجتمع

الأول: ضمانة استمرار المجتمع، ويكون هذا بتجديد أجياله من الأفراد الصالحين، ويدخل تحت هذا قضايا رئيسة دعت إليها الشريعة، وشرعت لها أحكامًا وأنظمة، أهمُّها:

- حفظ النسل بالإنجاب.

- حفظ النسل بحفظ النسب.
- حفظ النسل بحفظ الفطرة.
- حفظ النسل بالتربية.

فتبيَّن أنّ الأمر الأول بمحاوره الأربعة يدور حول قضيتين أساسيتين مرتبطتين بصلاح الأفراد:

- وجود الإنسان بالطريق الصحيح. ويدخل هنا: حفظ النسل بالإنجاب، وحفظ النسل بحفظ النسب.
- بناء الإنسان السليم. ويدخل هنا: حفظ النسل بحفظ الفطرة وعدم تغييرها أو السماح بذلك لشياطين الإنس والجنّ، وحفظ النسل بالتربية.

سلامة انتساب الأفراد لمجتمعهم سبب رئيس لحفظ المجتمع

الثاني: سلامة انتساب الأفراد لمجتمعهم، فلابد أن نضمن أن انطلاق الفرد مع مجتمعه قائم على أصول صحيحة، ويدخل تحت هذا الأمر بالدرجة الرئيسة ما يلي:

- صحة انتماء الأفراد للمجتمع.
- صحة العلاقة التي تحكم الأفراد بعضهم مع بعض.
- صحة العلاقة التي تحكم الترابط بين كيانات المجتمع.
- قوة البناء للمجتمع.

ولمّا كان المكان هو الذي يحتضن هذا الحراك كلّه، فصلاحه عنصر مؤثر في إنجاح الحراك الاجتماعي، والحراك الاجتماعي مؤثرٌ فيه، فإن كان صالحًا صلح المكان، وإن كان حراكًا فاسدًا فسد المكان به، وقد تبيّن أن محور بناء المسؤولية نحو مقدرات المكان أحد الكليات التي تبنيها شريعة الله في النفوس حين تعاملها مع الممتلكات، وكذا المحافظة على مقدراته والعمل على إنمائها، والبعد عن إفسادها بالتلف والعبث والتلويث.

فإذن نحن محتاجون في إصلاح المجتمع إلى:

- بناء مقدرات الأفراد ليكونوا صالحين في حركتهم الفردية.
- ضبط انتماء الأفراد للمجتمع.
- بناء طريقة التعامل المطلوب بين أفراد المجتمع.
- بناء طريقة تعامل الأفراد مع بيئتهم التي يتحركون فيها.
- بيان الجهة الضامنة لتحقيق هذه الأمور، وتذليل العقبات أمام الأفراد، وأمام الحراك المجتمعي الصحيح.

وحتى يتحول ذلك إلى برنامج عملي يرتقي إلى درجة المسؤولية، ويعمل الجميع عليه بصورة متوازية، يحتاج أن يتحول إلى قوالبَ تحكم الحراك مهما تنوعت ميادين العمل، واختلف الأفراد فيها، ويظهر في تلك القوالب مصفوفة القيم الأخلاقية موزعةً على محاور تفعيلها، وبالنظر نجد أننا أمام ثلاثة محاور:

الأول: الإنسان، وهو المراد تطبيق البرنامج عليه.

الثاني: الكيان، وهو حيزٌ من الأرض يتميز عن غيره من الأماكن بمواصفات خاصة به، يحتوى عمل الإنسان للوجود فيه.

الثالث: المحتوى العلمي المعرفي المراد بناء الإنسان من خلاله.

وبالتأمل في الطريقة الشرعية نجد أن الصورة التي نختارها لبناء القوالب، هي: أن توضع بحسب الكيانات المكانية، باعتبار أن المكان ثابتٌ، والرسالة التي أنشئ من أجلها تكون سببًا في ثبات الكيان ما دامت الحاجة إليها مستمرة، والإنسان متحركٌ في هذه الأماكن. وكذلك المادة العلمية، فهي متجددة ومقسمة بحسب الأعمال والأشخاص والأماكن، فمن التيسير في إدراكها لدى الإنسان: أن يرتبط إيصالها بمكان تفعيلها ما أمكن.

وهـذا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسـتخدم في تعليمـه هـذه الطريقة، ففي السوق، قال للبائع: «**مـن غشـنا فلـيس منّـا**»[1]، وفي المسـجد قـال: «**صـلوا كمـا رأيتمـوني أصـلي**»[2]، وفي المشـاعر المقدسـة، وفي موسـم الحـج، قـال: «**خـذوا عـني مناسككم**»[3]، وفي الطريق يقول أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنّـا قعـودًا بالأفنيـة نتحـدّث، فجـاء رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقـام علينـا، فقـال: «**مـا لكـم ولمجـالس الصـعدات؟ اجتنبـوا مجـالس الصعدات**». فقلنـا: إنمـا قعـدنا لغـير مـا بـاس، قعـدنا نتـذاكر ونتحـدث، قـال: «**إمَّـا لا، فـأدّوا حقهـا: غـضّ البصـر، وردّ السلام، وحسن الكلام**»[4].

إن النتيجـة الـتي نأخـذها مـن الطريقـة النبويـة: أن صـلاح الكيانات هو صلاحٌ للمجتمع وحفظٌ له، ويمكـن أن نقـول: إن صلاح المجتمع متحققٌ بصلاح الكيانات. وهـذا مـا سـنبينه في المبحث التالي.

---

(١) رواه مسلم (٩٣٩٦).

(٢) رواه البخاريّ (٦٣١).

(٣) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٤) رواه مسلم (٢١٦١).

صلاح المجتمع وحفظه بصلاح الكيانات

بناء الكيانات المجتمعية المنظمة وفق مفهوم العبودية طريق لصلاح المجتمع

لما كانت حركة الإنسان لا بدَّ لها من مكان، والأماكن متعددة، لكل مكان منها طبيعته الخاصة به، والشريعة توجب على الإنسان أن يحقق العبودية لله في كل حركة يتحركها، في أي مكان وأي زمان، فوجدنا أن الشريعة جعلت لكل مكان يتحرك فيه الناس بصورة متكررة أحكامًا كليّة، وأحكامًا جزئية، تضبط حركة الإنسان في ذلك المكان، وتحدد ماله من حقوق، وما عليه من واجبات نحو ذلك المكان.

كل ذلك معالجة للتصرفات الفردية غير المنضبطة، والتي لا تتبصر العواقب، ولتقسيم المهام وتحديد المسؤولية على الناس، وتيسير التعلم والانقياد للعمل الصحيح بهذا الطريق، يتحول المجتمع بأماكنه المتعددة إلى كيانات ذات أنظمة، يحكمها ويضبط الحراك المجتمعي فيها، وهكذا تبنى معيارية الحراك المجتمعي لكل مكان يتحرك فيه الإنسان.

وسوف نجد في مفهوم العبودية الذي بنيت عليه العقول المسلمة دافعًا ومحفزًا للعقول للانقياد لتلك الأحكام الخاصة بكل مكان، بل يجعلها متشوقةً أن تعرف مراد الله منها في تلك

الأماكن لتحقق عبودية الله في تلك الأعمال، ولأنها تضمن بتلك الفتوى الربانية أنها تعاملت مع ذلك المكان بأفضل ما يمكن، وتحققت لها المصلحة بأعلى مستوى، وعند الحاجة إلى إحداث تجديد في حركتها وَفق التغيرات المجتمعية والحياتية، نجد الشريعة تأذن لأهل العلم والبصيرة والرأي بالاجتهاد، واختيار المناسب من الأعمال شريطة ضبط اجتهادها بالكليات الشرعية [1].

فشعر الناسُ في الإسلام أمام ما استجد من حياتهم بالإشباع العقلي من جهةٍ أنهم اجتهدوا وأبدعوا وجدّدوا في نمط حياتهم، وشعروا بالإشباع العاطفي أنهم عاشوا تجربةَ بناء المجتمع وَفق معطيات زمنهم الحياتية، ومن جهة أخرى شعروا بطعم العبودية والانقياد لله عندما ضبطوا أعمالهم بالشريعة وكلياتها فحققوا أمر الله، فكانوا عبيداً لله عزّ وجلّ، وازدادت ثقتهم في دين الله، وقدرته على تطويع الحياة لمراد الله.

---

(١) سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عمن يقول: أن النصوص لا تفي بعشر معشار الشريعة، هل قوله صواب؟ فقال في جوابه: (هذا القول قاله طائفة من أهل الكلام والرأي كأبي المعالي وغيره، وهو خطأ، بل الصواب الذي عليه جمهور أئمة المسلمين أن النصوص وافية بجمهور أحكام أفعال العباد.. وذلك أن الله بعث محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجوامع الكلم، فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التي هي قضية كلية وقاعدة عامة تتناول أنواعًا كثيرة، وتلك الأنواع تتناول أعيانًا لا تحصى، فبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد) [مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٨٠].

وهكذا تبنى المسؤولية لدى الفرد إزاء نفسه ومجتمعه من خلال ضبط حركته في كل كيان يتحرك فيه، من نواحي مجتمعه الواسعة.

فالمسجد كيانٌ، له على المسلم حقٌّ، من حيث عمرانه حسًا ومعنى، وعليه حقٌّ لتطهيره حسًا ومعنى، وله فيه حقٌّ يحقق من خلاله بعض متطلبات العبودية لله عزّ وجلّ، وتواصله البنَّاء مع إخوانه المسلمين.

والسوق كيانٌ، له على من يعمل فيه آدابٌ لابد من الالتزام بها، والداخل إليه له آدابٌ لابد من الالتزام بها.

والطريق كيانٌ، له آداب لا بد أن يلتزم بها الجالس فيه، أو المار به.

والحي كيانٌ، الساكن فيه له حقٌّ على جيرانه، وحقٌ لجيرانه عليه، وللحي كمكان حقٌّ على الساكن، وللساكن فيه حقٌّ، والمنتزه كيان، والنادي كيان.

وهكذا كلما استحدث الناس كيانًا في المجتمع ليجمعهم وليتحركوا فيه؛ فإن الشريعة لا تعارض ذلك ابتداءً ما لم يتعارض مع مقاصدها، وهكذا ما أحدث الناس بناء كيان في المجتمع إلاّ والعقلية التي بنيت على مفهوم العبودية تبحث كيف تحقق ذلك المفهوم في ذلك الكيان المُحدث، والحراك الذي يجب أن يكون فيه.

الأسرة أصغر كيان وحظى بتنظيم دقيق

ولعل من أعظم الكيانات التي حظيت في الشريعة بتفصيل الأحكام الضابطة للحراك المجتمعي فيها الأسرة، وذلك لأهميتها من جهة اعتبارها النواة الحقيقية للمجتمع، والمحضن الأساس لبناء الأفراد، ودوافع نشوءها فطرية، فالفساد فيه فسادٌ للمجتمع محققٌ، ومن جهة أخرى حظيت الأسرة بهذا النظام الدقيق ليقاس عليها في تنظيمها الكيانات المجتمعية الأخرى التي يُحدثها الناس.

العناية أول ما تكون في الكيانات القائمة لا المستحدثة

بهذا الطريق نشعر أننا نصلح الإنسان من خلال حركته الطبعية، وننمي المجتمع من خلال كياناته القائمة ابتداءً، فالإنسان ينبغي عليه وفق قاعدة واجب الوقت، أن يبدأ في التعليم بتقديم ما يحتاجه في حياته وحركته، وحقوق وآداب الأماكن التي يرتادها، فيترتب فكره، وتتحدد أولوياته في التعلم، ويتضح لنا كيف نعمل في كل كيان، وماذا ينبغي أن يكون فيه من المعارف التي تجعل الناس فيه يحققون العبودية لله في حركتهم وأعمالهم فيه، فلا يحدث التداخل في المعارف.

الكيانات التي يتحرك فيها الإنسان تحدد أوليات التعلم عنده

فهو يجد في المسجد ما يدلّه على الأدب الذي ينبغي التزامه فيه، وفي النادي يجد الأدب الذي ينبغي التزامه فيه، وفي إدارته الحكومية يجد الأدب الذي ينبغي التزامه فيها، وهكذا في كل كيان.

إيصال المعرفة المتخصصة من خلال الكيانات توازن وتكامل في البناء الإنساني

وتشمل تلك المعارف أدب التعامل مع المكان ومع الإنسان، فيحصل البناء المعرفي والنفسي المتوازن والمتكامل للإنسان.

التلازم بين المعرفة المقدمة وطبيعة المكان ثبات لها وتوازن في تقديم المعرفة

وبهذا الطريق نسلم من عدم التوازن في طرح المعارف على الناس، وأيضًا يكون المجتمع كله محضن تعليم متخصص، وتستوطن المعرفة في أماكنها الصحيحة، فتكون التنمية الحقيقية والمستدامة للمجتمع من خلال نماء تلك الكيانات التي بمجموعها يتكون المجتمع.

بناء الكيانات المجتمعية ونظامها يبني المعيارية ويعالج العشوائية

بهذا الطريق تؤصّل في المجتمع المعيارية ونعالج العشوائية والفوضى، وكلما بنينا على ذلك الأعراف المجتمعية، وطبعنا بين الناس تلك المعارف والمعايير الصحيحة للأماكن؛ جعلنا المجتمع بكل طاقاته حراسًا على تلك الكيانات والمعيارية التي وضعت لها.

وهي مرتبة ثالثة في نفوذ أحكام الشريعة بين الناس بعد الفطرة أولاً، ثم الوازع النفسي واستشعار رقابة الله ثانيًا، ثم الأعراف الصحيحة ثالثًا، ثم مراقبة الحاكم رابعًا.

بناء العرف الصحيح يحمِّل المجتمع مسؤولية الرقابة

إنّ من الأمور المهمة جدًا التي نلحظها في الطريقة الشرعية في هذا الجانب: أنها تخاطب الفرد مباشرة، وتدخله في دائرة التكليف دون إذن من أحد، وتبيّن له الدورَ المطلوبَ منه، والواجب عليه أمام كل مكان يتحرك فيه، وتجعله تحت

الرقابة الربانية، وأمام المساءلة من الناس في الدّنيا، وأمام المساءلة من ربِّ الناس في الآخرة، ولإكمال ضمانة الالتزام أوجبت الشريعة على الفرد محاسبة النفس لمعرفة الموقف من ذلك كله.

فإذا تبيَّن أن منطلقنا في وضع القوالب العملية: هو الكيانات ونقصد بالكيان كل مكان له خصوصيته التي تميزه عن غيره من الأماكن، ويتردد عليه أفراد من الناس، فإن صلاح كل كيان متحقق بأمرين:

الأول: وضوح هدف ورسالة الكيان التي لأجلها أنشئ، وتقويم ذلك شرعيًا.

الثاني: إصلاح حركة الأفراد داخل الكيان وَفق رسالة الكيان وأهدافه المقرَّة شرعًا.

وإن مما يحقق إنجاز الرسالة المشروعة لأي كيان: مراعاة أفراده المنتمين إليه للسنن الإلهية سابقة الذكر، وهي: سنة الله في الظلم والظالمين، وسنة الله في الاجتماع والافتراق، وسنة الله في الترف والمترفين، ومعالجة تلك السنن بالمصفوفة القيمية التي سبق ذكرها، ولضمانة تحقيق البناء الصحيح للكيان وإصلاحه نحتاج أن يكون بناء تلك القيم من خلال أربعة محاور، وهي:

١- الكليات الأخلاقية المحققة لصلاح حركة الفرد الذاتية داخل الكيان، والكلية الخلقية (القيم) المخصصة لذلك:

- قيمة الاستقامة، والأخلاق المكونة لها: التقوى، وطاعة الله، والمروءة.

٢- الكليات الأخلاقية المحققة صلاح تعامل الأفراد بعضهم مع بعض، والكليات الخلقية (القيم) المخصصة لذلك:

- قيمة الأخوة، والخلق الأساس لتكوينها: السماحة.
- قيمة التكافل، والخلق الأساس لتكوينها: المواساة.
- قيمة العدل، والخلق الأساس لتكوينها: الإنصاف.
- قيمة الاتحاد، والخلق الأساس لتكوينها: النصيحة.

٣- الكليات الأخلاقية المحققة صلاح تعامل الأفراد مع بيئة الكيان ومقدراته، والكليات الخلقية (القيم) المخصصة لذلك:

- قيمة التنمية، والخلق الأساس لتكوينها: الأمانة.
- قيمة حفظها من التلف الإسرافي، والخلق الأساس لتكوينها: التوسط والاعتدال.

- وقيمة حفظها من التلف العبثي، والخلق الأساس لتكوينها: الحكمة.

- وقيمة حفظها من التلوث، والخلق الأساس لتكوينها: الطهر.

٤- الكليات الأخلاقية المحققة صحة إدارة الكيان من قبل الراعي عليه، والكليات الخلقية (القيم) المخصصة لذلك:

- قيمة التمكين، والخلق الأساس لتكوينها: الإرادة القوية.

- قيمة التوزيع العادل، والخلق الأساس لتكوينها: المساواة.

- قيمة الإحسان، والخلق الأساس لتكوينها: الرقابة.

- قيمة النصرة، والخلق الأساس لتكوينها: المحاسبة.

وسوف يكون الحديث الإثرائي لكل قيمة من خلال الملحق المرفق لهذه الدراسة:

العبودية مفهوم أشمل من المؤسسية :

الله سبحانه وتعالى الرؤوف الرحيم القائل: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧]، يريد من الناس أفرادًا وجماعاتٍ أن تكون حياتهم كلها مستهدية بالشريعة، التي وضعت لتحقيق مصالحهم في الدنيا، كما تحققها لهم في الآخرة.

جميع أمور الحياة داخلة في مفهوم العبودية لله

فليس هناك شيء من أمور حياتنا لا تهيمن عليه الشريعة بتقويمها لذلك العمل، ومن ثم إعطاء الاستبصار للإنسان في فعله أو تركه، وأنها تحرص على بناء معاني الاعتزاز والسعادة عند الإنسان المؤمن الذي يجد مشورته وفتواه فيما يفعل أو يترك مقدمة بيسر من العليم الخبير سبحانه وتعالى المستوي على عرشه في سماواته العلى، فمن يكون أكثر تيقنًا بسلوكه طريق الصواب من المؤمن؟!!، وهو يتبع إرشاد العليم الحكيم سبحانه، ومن أسعد من إنسان يفتيه ويرشده ربُّ السموات والأرض؟!

لقد وجد أهلُ الإسلام في الإسلام أنه أرحب أفقًا في تحقيق مطالبهم، وإشباع ملاذهم العقلية والحسية والتخيلية، ووجدوا أن الإسلام أحنُّ عليهم من أنفسهم في تجنيبهم ما يضرهم ولا ينفعهم، ويدلهم على الحياة السعيدة الراقية التي لا تصل إليها عقولهم لو تركت لوحدها، وبهذا الأصل تتكوَّن

العقول المسلمة، وتبنى وتستشعر أنها مطالبة في كل ما تعمله: أن لا يخالف الهدي الرباني الرشيد، فهي تُقبِل على تعلم ذلك، وتطلبه بفرح، فهي تدرك أن الحياة كلها وحركة الإنسان الإرادية جميعها داخلة تحت دائرة العبودية، وأنها لا تجد إشكالاً أمام تجدد حركة الإنسان وفق معطيات عصره لسعة الكليات الشرعية التي تحتوي تلك الحركة وتبين الموقف الشرعي منها، فيكون المسلم دائمًا على بصيرة فيما يفعل أو يترك.

مفهوم العبودية أشمل من مفهوم المؤسسية

إنه مفهوم أوسع بكثير وأشمل من مفهوم المؤسسات المعاصرة، الذي ضبط حركة الفرد في جزء من حياته في مؤسسته، وفي بعض مناحي الحياة - هذا لو سلّمنا بصحة كل ما وضع لضبط الحراك المؤسسي -، ثم أطلق له العنان ليفعل ما يريد في جزء كبير من حياته دون ضوابط، تحت مُسمّى الحرية.

ومن هنا: كانت الفوضى المجتمعية المنذرة بخطر عظيم على الناس وَفق السنن الإلهية، ولا نقصد غمطَ العمل المؤسسي إيجابياته، فإنه يدرك كثير من العقلاء أنّ للعمل المؤسسي ثمارًا إيجابية متعددة، كجمع فكر العاملين في المؤسسة على الأهداف المحددة داخل المؤسسة، وما للإجراءات من أثر في ضبط العمل، وتحديد المسؤوليات، والتمكين من المتابعة والمراقبة، والوصول إلى نقاط الخلل،

والمبادرة إلى علاجها، وتقليص دائرة الاجتهاد الـلا مسـؤول، وتخفيف دائرة الخلاف، وما لهذه الأمور كلّها من أثر في وضع الخطط المستقبلية للمؤسسة، واستبصار المآلات والعواقب.

إنّ مفهـوم العبوديـة الشـمولي يحتـوي هـذه الإيجابيـات ولا يعارضـها؛ ولكـن يـدرك الكـثير مـن العقـلاء: أنّ هنـاك إشكالاتٍ عند نشوئها داخل العمل المؤسسي الصرف، يصعب معالجتـها بعلاجـات جذريـة في ظـلّ الاجـراءات والعقوبـات فحسـب، وعلـى وجـه الخصـوص مشـكلة ضـعف الانتمـاء والولاء، ومشكلة: ضعف الرقابة الذاتيـة. ومـا ينشـأ عـن هـذه الأمراض من مظاهر سلوكية سلبية، كثيراً ما تعصـف باسـتقرار المؤسسة، فعندما يكون البحث عن علاجات أنجع، يـأتي دور العبودية لتحقق المعالجة، باقتدار لا نظير له.

(ومن مجموع ما سبق تكون الثمرة المدركـة : أن الفوضـى لا تصلح عملاً، وأن الانتظام طريقٌ رئـيسٌ للنجـاح، في جميـع أعمال الناس المشتركة).

فأدرك العقلاء: أن قابلية المجموعـة - الـتي ينتظمهـا عمـل واحد - للمرجعية أساسٌ في معالجة الفوضى وتحقيق الانتظام.

فالنـاس حـال اجتمـاعهم واشـتراكهم في الأعمـال، لا يصلحهم أن يكون لكل واحد منهم مصدر مستقل يحـدد لـه النافع والضار، ويستقي عنه، غير مصدر الآخر.

وحصول ذلك بداية الافتراق والصراع، والمشاحنات من مظاهره الأولى، وعندها يصعب على الفرد أن يؤدّي رسالته في مؤسسة هذا حالها.

ويدرك العقلاء أيضًا: أن قدرة المرجعية في المؤسسة في تحديد النافع والضار من أعمال المؤسسة سببٌ له أثره في كسب المؤسسة، واستقرارها.

وعندما ننطلق بالفكر ليتعدّى البُعد المادي من عمل المؤسسة، ليشمل الأبعاد الإنسانية المتعددة في داخل المؤسسة، وأدبيات التعامل فيما بين العاملين مع بعضهم البعض، وفيما بين العاملين والمستفيدين. وعندما ننطلق أيضًا بالفكر مع هذا الإنسان، فنخرج معه من دائرة المؤسسة إلى نواحي الحياة المختلفة والأوسع مجالاً والأرحب أفقًا، ونحن نتأمل تنوع الحركة التي يتقلب فيها الإنسان، وتعدد الأماكن والكيانات التي يتنقل فيها الانسان، وكثرة الناس الذين يلتقي بهم هذا الإنسان، وتعدد الوشائج والصِلات التي تربطهم به، ونحن نريد منه أنه يظهر منه التوازن في ذلك كله، وأنّ تكون له شخصية واضحة المعالم تدلّ على ثباتٍ لا اضطراب، ووضوح رؤية لا اختلال فيها، ولا اعوجاج، بل ونريد منه، وممن حوله من أفراد المجتمع: أن يظهروا بصورة منتظمة راقية نبيلة، تكون مصدر ثناء عليهم، واغتباط لهم ممّن يخالطهم.

والإنسان في ذلك كلّه هو بنفسه ساع ليحقق النجاح لنفسه في كل تلك الميادين، ويحاول مجتهدًا رفعها عن الخسارة، إنه في حركته تلك محتاج للناس في إنجاز أهدافه، فهل نتصور أن ذلك سوف يتحقق له إذا كان لكل واحد من هذه الجموع مرجعية مستقلة، يقيسون بها النافع والضار من كل تلك المعاملات. لقد عجزت الحضارات المعاصرة أن تحقق نجاحًا فيه، كما حققت نجاحًا محدودًا في ضبط شيءٍ من الجوانب المادية في ظل المؤسسات محدودة الأفراد، محدودة زمن الحركة، ولكن غطّت فشلها بتجميله المتصنع، فأظهرت الأمر القبيح بمسمّى حسن، فسمّت الفوضوية والعبثية من حركته المجتمعية بالحريّة، كذبوا.

وهنا ينشأ سؤالٌ ذا معنى كبير: إذن؛ كيف الطريق لانتظام المجتمع؟ وما هي المرجعية التي تملك قوة العلم لتقييم الأشياء بصورة صحيحة متيقنة، ويجد الناس فيها القدرة على إشباع الطموحات المتفاوتة؟ ويجدون فيها القدرة على إشباع أنواع الملاذ النفسية بتوازن؟ ويجدون فيها القدرة على إقناع الأفراد بموازين التقييم التي لديها؟ ويجدونها معهم في كل ميدان حتى لا يختل الميزان لديهم؟ ويجدون فيها القدرة على احتواء التنوع فلا تضيق به، وتعالج فيهم التضاد؟ ويجدون الرّضى في نفوسهم نحوها؛ لأنها هي مرجعيتهم؟ ويشعرون بالشرف عندما يعلنون للقاصي والداني أنها مرجعيتهم؟

وللإجابة عن هذا السؤال المهم؛ أقول: إنه الله الخلاَّق العليم يكفينا وهو حسبنا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ ﴾ [الأنفال].

فمن لم يرض بالخلاّق سبحانه مرجعًا فبمن يرضى؟! ومن لم يرضَ بالعليم الخبير سبحانه مرجعًا فبمن يرضى؟! ومن لم يرض بالحكيم سبحانه مرجعًا فبمن يرضى؟! ومن لم يرضَ بالرؤوف الرحيم مرجعًا فبمن يرضى؟! ومن لم يرضَ بالجواد الكريم سبحانه مرجعًا فبمن يرضى؟! ومن لم يرضَ بالقوي القهار سبحانه مرجعًا فبمن يرضى؟! ومن لم يرضَ بالعزيز المنتقم سبحانه مرجعًا فبمن يرضى؟! ومن لم يرضَ بالحكم العدل سبحانه مرجعًا فبمن يرضى؟!

إنّ ديننا الإسلامي بتشريعاته ونظامه، هو: مراد الله من نهاية صلاح البشر، وفي ظل شريعته الغراء، وطريقته في تحقيق المصلحة لهذا الإنسان المكرّم، نجد أن أكبر أصول الإسلام: الإيمان بواحدانية الله عزّ وجلّ، وأنّ جميع المخلوقات من أشرفها إلى أدناها عبيده، ومن أصوله إثبات بعثة الرسل، وأنهم عبيده المكرمون المبلغون للناس مراد الله.

إنّ هذا الإيمان: هو أساس البناء الفكري الصحيح للإنسان، وبه يصلح التفكير لديه، فيستبصر طريقه في شؤون الحياة الدنيا، ومن طريقه يتحصل على العلم الذي يجب عليه

سلوكه للنجاح في الحياتين - الدنيا والأخرى -؛ لأن الذهولَ عن الحقائق، والخطأ في إدراكها، هو: أكبر المصائب التي يقع فيها الإنسان. فبحصول العلم المتيقن يسلم الإنسان من الوقوع في مهاوي الأغلاط في الحياة العاجلة، وفي مهاوي الخسران في الحياة الآخرة، وعن طريقه يمكن تحقيق الاجتماع الأرقى للأفراد.

ومن هنا: لم يسلك الإسلام بالناس، وهو يدعوهم إلى هذه الأصول طريق الإكراه والالجاء، وإنما سلك طريق الإقناع، والذي أهمه وأعظمه وأوله وأوجبه: إقناع الناس بأن الله سبحانه صاحب الحقّ أن يحكم في الناس، وأنه صاحب الحقّ أن يُعبَد، وجعل لذلك أعظمَ علوم الوحي وأوجبها وأفرضها، وهو العلم بالله. والطريق إليه التفكّر في آياته المقروءة وآياته المرئية، وذلك بالتفكّر في ملكوت السموات والأرض لإدراك سننه الكونية، والتفكّر في أحوال الناس لإدراك سننه الإلهية الشرعية.

لقد امتلأ كتاب الله بهذا العلم، حتى إنك لا تجد أمرًا أُمِرَ به الناسُ، إلاَّ وفيه تذكيرٌ بصفة أو اسم لله عزّ وجلّ، يعرفهم سبحانه بنفسه، وتأمل معي هذا الكلام للإمام ابن القيم رحمه الله: (تأمّل خطاب القرآن تجد ملكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أزمّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، مستويًا على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالمًا بما

في نفوس عبيده، مطلعًا على إسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدّر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف نجده يثني على نفسه ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرّف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه ... إلى أن قال: فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلاً، هذا شأنه، فكيف لا تحبه وتنافس في القرب منه؟! وتنفق أنفاسها في التودد إليه؟! ويكون أحبّ إليها من كل ما سواه؟! ورضاه آثر عندها من رضى كل ما سواه؟! وكيف لا تلهج بذكره؟! ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاءها وقوتها ودواءها؟! بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت، ولم تنتفع بحياتها)[١].

إنّ مفهوم العبودية الذي يستلزم من الإنسان التسليم والامتثال لما جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلّغه عن ربه، ويستلزم تأطير الحياة كلها بمراد الله عزّ وجلّ، هو المفهوم الذي يجب أن تبنى أفكار جميع الأفراد عليه، ويكون هو ثقافة المجتمع

---

(١) الفوائد (٢٩).

التي يلتقي عليها، وأنه هو الطريق الوحيد المحقق لمصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، والذي يجعله يملك العلم الحقّ وبيقين لا وهم فيه، وبه تنتظم أحوال الاجتماع من النواحي الفكريه والعملية، إنّ كل فرد مأمور بصحة التفكير في دائرة ما يحتاجه من الأعمال تفكيرًا يعصمه من الوقوع في مهاوي الأخطاء.

فالمطلوب: إصلاح التفكير للإنسان فيما يرجع إلى الشؤون في الحياة العاجلة بمختلف ميادينها، والآجلة لتحصيل العلم الصحيح بما يجب عليه سلوكه للنجاح في الحياتين، ولكي يسلم أيضًا من الوقوع في حمأة الأغلاط في الحياة العاجلة، وفي مهاوي الخسران في الحياة الآخرة، فأصبح لدينا ثمانية محاور نحتاج إصلاح توجّه التفكير نحوها، وهي:

١- معرفة مصالح الدنيا.

٢- معرفة الطريق الصحيح لتحصيلها.

٣- معرفة مفاسد الدنيا.

٤- معرفة الطريق الصحيح لدفعها.

٥- معرفة مصالح الآخرة.

٦- معرفة الطريق الصحيح لتحصيلها.

٧- معرفة مفاسد الآخرة.

٨- معرفة الطريق الصحيح لدفعها.

إن المحافظة على التفكير على هذه العلوم، متحقق بالدخول في إطار العبودية لله وحده اللطيف الخبير، العليم القدير سبحانه، فيتجّه الإنسان بعقله ونفسه نحو وحي ربه، ليجد الإجابة في فتوى ربانية ما كان له أن يصل إليها، ولو بذل ماء الفؤاد، ولكنه فضل الله الرحيم الوهاب، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

إنّ نشر مصطلح العبودية لله عزّ وجلّ، وإدراك الناس لمعناه، والانقياد له يحقق للمجتمع من خلال أفراده ما يلي:

- قدرة الفرد على سبر الحقائق والمدركات الصحيحة (سلامة ميزان العقل).
- تنزه الفرد، وعدم قبوله للأوهام التي لا تبنى على حقائق علمية متيقنة، وذلك في المحسوسات والمعنويات.
- تهيئة الإنسان لقابلية العلم الصحيح.

- بناء المنطقية الصحيحة المتوازنة التي تدفع الفرد لاستجلاب الأشياء من أسبابها الحقيقية.

- تنشئة الفرد على عزة النفس والكرامة.

- إيجاد التوازن في النفس عند العمل لتحقيق الأشياء (بين استغراق الجهد في تحصيل السبب، وبين التوكل على الله سبحانه وتعالى).

- إيجاد وحدة لمصدر التلقي عند أفراد المجتمع، فيحصل الاجتماع على أعظم أصل في البناء المجتمعي، حين يكون مرجعهم وحي الله عزّ وجلّ.

- بناء الثقة والرضى والطمأنينة والفرح والثبات بإدراك الفرد أن ما يسلك من الأعمال إنما هو اختيار العليم الحكيم له.

- بناء ثقافة الانضباط والانتظام لدى الفرد، وأن لكل شيء معياراً لا بدّ من الالتزام به.

- تهيئة العقول للثقافة المجتمعية الصحيحة.

- اتّساع فكر الإنسان، فيشمل الرغبة في تحصيل السعادة في الحياتين الدنيا والأخرى.

إنّ الأمر الذي يحقق في الفرد هذه المقومات حقيق بالعناية به، وأن يكون هو أساس البناء لجميع الأفراد، وبهذا تكون المعالجة الشرعية لسنة الله في اتّباع هداه.

لقد عمل (مشروع تعظيم البلد الحرام) بقدر طاقته وجهده من خلال قسم البحوث والدراسات الاجتماعية: على تقريب تلك الطريقة، والتركيز على الأصول منها، ليتفرع عنها باقي البناء، وذلك بإدراك المراد الشرعي فيها - قدر الإمكان - وإدراك الواقع ومدى النقص عن ذلك المراد، ووضع المعالجات المناسبة، والتي تمثلت ابتداءً في بناء مصفوفة قيمية اصطلحنا عليها بمصفوفة القيم التكوينية، باعتبار أننا نريد أن يكون بناء الفرد العقلي والنفسي والفكري يتكوَّن من مجموع تلك المصفوفة، ويؤمّل عند بنائها لدى الأفراد أن تحقق الثمار سابقة الذكر، والتي عالجت مواطن التأثير في الإنسان عقله ونفسه، ولم تغفل المصفوفة عمل الجوارح باعتباره ميدان اكتشاف صحة البناء القيمي في النفس والعقل.

فوضعت لأعمال الجوارح مصفوفةً خاصةً بها، ولمّا كان عمل اللسان من أعظم ما يؤثر على الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى: أنه أول ردة فعل لما يحدث في النفس، بأن تظهر على اللسان. كانت الأخلاق المختارة له: الصدق، وذكر الله عزّ وجلّ.

أمّا عموم الجوارح؛ فالأخلاق المختارة لها: طاعة الله، والمروءة.

فبطاعة الله تضبط الجوارح أمام الواجبات الشرعية المأمور بها، وأمام الكبائر المنهي عنها، وبالمروءة تضبط الجوارح أمام العرف الصحيح الناشئ من تطبيع الأحكام الشرعية في المجتمع، أو المبني على الذوق السليم والفطرة السوية.

الأصول المعرفية للعلاقات المجتمعية:

إن مجتمعنا اليوم تكتنفه شبكة من العلاقات المتعددة المتنوعة، ولقد زاد من دائرة اتساعها ما وصلت إليه أدوات الاتصال في تقريب التواصل بين الأفراد بصورة سريعة، لا أقول على مستوى المجتمع الواحد ولا البلد الواحد، بل على مستوى سكان الأرض بعمومهم. فغدت العلاقات شبكةً معقدةً للمتأمِّل فيها، فعلاقات بين الأفراد، وعلاقات بين الأفراد والهيئة الاجتماعية المحيطة بهم، وعلاقات بين الفرد والمؤسسات الاجتماعية، مثل: الأسرة والقبيلة والعائلة وعلاقات بين الفرد والمؤسسات بمختلف أنواعها وتخصصاتها، وهي علاقات متنوعة أخلاقية وقانونية وفنية ... الخ.

إن ما يعنينا هنا: العلاقات الأخلاقية المجتمعية، والتي يحتاج إليها كل اثنين من بني آدم جمعهم مكان واحد، مهما كانت مدّة اجتماعهم، وأيًا كان مكان اجتماعهم.

ولمّا كانت هذه الورقة مُعَدّة ليخاطب بها أهل الإسلام، وكان التركيز فيها على العلاقات الأخلاقية المجتمعية الضابطة

للتعامل فيما بين أهل الإسلام - وإن كانت هناك أيضًا علاقات أخلاقية يأمرنا الإسلام بالتعامل بها مع من خالفنا في الانتماء للإسلام، يظهر من خلالها رُقي هذا الدّين، وأن الشريعة هي الأمثل والأعظم تأثيرًا في تحقيق المقصود من سلامة الحراك المجتمعي.

إن عناصر القوانين الضابطة للعلاقة بين أفراد المجتمع مردُّها إلى حسن السلوك والسيرة في معاملة أفراد المجتمع بعضهم لبعض. ومادة تلك العلاقات هي مكارم الأخلاق، وهو الأصل الذي أمرت الشريعة ببنائه في نفوس أفراد المجتمع ليتحقق هدفها السامي من الاجتماع والتآلف والتراضي بين أفراد المجتمع (وسبق الكلام عن مكارم الأخلاق ومكانتها في الشريعة). فالمتأمل في عناية الشريعة بمكارم الأخلاق يدرك أن الإسلام يريد أن يكون الخلق الفاضل كالنقد المتداول، يعمُّ كل مجلس، ويصبغ كل معاملة.

الثمار المرجوة من شيوع مكارم الأخلاق :

إن لشيوع مكارم الأخلاق بين أفراد المجتمع ثمارًا عظيمةً، منها:

- زكاة نفوس أفراد المجتمع.
- حصول الألفة بين المسؤول والأفراد، وبين الأفراد بعضهم ببعض.

- بناء السمعة الطيبة والمكانة العالية للمجتمع.
- جعلُ كثيرٍ من المجتمعات الأخرى تنظر له بنظرة القـدوة والاغتباط.
- لينُ المجتمعات المعادية لهذا المجتمع.
- صرفُ عقول المسؤولين إلى مصـالح المجتمـع والارتقـاء به، بدلاً من الوقوف مع معالجة المشكلات فحسب.
- كسبُ المسؤولِ مكانة مجتمعية طيبة.

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن الكمال السيوطي.
- أحكام القرآن لابن العربي.
- إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي.
- الاستقامة، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- أضواء البيان، لمحمد الأمين الشنقيطي.
- الاعتصام، لإبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي.
- إغاثة اللهفان، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
- اقتضاء الصراط المستقيم، ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض اليحصبي.
- البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله الزركشي.
- التبيان في أقسام القرآن، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
- تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي.
- تفسير أبي السعود، لمحمد بن محمد أبو السعود.
- تفسير الألوسي، محمود شكري الألوسي.

- تفسير البغوي، الحسين بن مسعود.
- تفسير الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الرازي.
- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا.
- تفسير الواحدي، علي بن محمد الواحدي.
- تفصيل النشأتين وتحصيل السعدتين، للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني.
- تهذيب الأخلاق، لأحمد بن محمد بن مسكويه.
- تهذيب تفسير ابن جرير، لمحمد بن علي الصابوني.
- تيسير الكريم الرحمن، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي.
- جامع الرسائل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- الجامع الصحيح، لمحمد بن إسماعيل البخاري.
- الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي.
- الجواب الصحيح، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- الجواب الكافي، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
- رسالة الألفة بين المسلمين، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- رسالة الأمر بالمعروف، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- الروح، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني.

- سنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد القزويني.
- سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث.
- السنن الإلهية، د: عبد الكريم زيدان.
- السنن الإلهية، د: مجدي عاشور.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي.
- سنن الدارمي، لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي.
- سير أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
- شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام النووي.
- شرح صحيح البخاري لابن بطال.
- شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي.
- صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان بن أحمد البستي.
- صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري.
- العذب النمير، لمحمد الأمين الشنقيطي.
- غريب الحديث، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة.
- فتح الباري، لأحمد بن علي بن حجر.
- الفوائد، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
- قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- الكبائر، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
- الكليات الأساسية للشريعة، د: أحمد الريسوني.

- الكليات، لأيوب بن موسى الحسيني الكفوي.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن علي بن منظور.
- مجمع الزوائد، لعلي بن أبي بكر الهيثمي.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم.
- المحرر الوجيز، لعبد الحق بن غالب ابن عطية.
- مدارج السالكين، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
- المستدرك على الصحيحين، لمحمد بن عبد الله الحاكم.
- المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، لمحمد بن قاسم.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني.
- مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني.
- معجم الطبراني الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني.
- معجم الطبراني الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني.
- المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني.
- مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، د: يوسف بدوي.
- منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
- الموافقات في أصول الفقه، لإبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي.
- الموطأ، للإمام: مالك بن أنس.

- نظرة النعيم، إعداد مجموعة من الباحثين.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري.

الفهرس

إشراقة	٧
أولاً: الأصول الشرعية الرئيسة لمعرفة غايات الشارع من خلق الناس (مراد الله من خلق الناس)	١٧
الأصل الأول: العبودية لله عز وجل غاية خلق الإنسان	٢٥
الأصل الثاني: الإنسان مورد التكليف الشرعي	٤٣
الأصل الثالث: الآخرة دار المجازاة العادلة	٥٩
العبودية حقٌّ الله على العبيد كلهم	٧١
الوحي وحدة متكاملة	٧٧
منزلة العمل المجتمعي في الشريعة	٨٥
السنن الإلهية المجتمعية والمصفوفات القمية	١٢٣
ثانيًا: القيم الأخلاقية المعنية بصلاح تعامل الفرد مع أقرانه من الناس.	١٦٣
الكلية الخلقية الأولى: الأخوة الإسلامية	١٦٦

الكلية الخلقية الثانية: التكافل	١٦٧
الكلية الخلقية الثالثة: التعامل العادل	١٦٧
الكلية الخلقية الرابعة: الاتحاد	١٦٨
ثالثًا: القيم الأخلاقية المعنية بصلاح تعامل الفرد مع الكيان وممتلكاته.	**١٧١**
الكلية الخلقية الأولى: التنمية	١٧٤
الكلية الخلقية الثانية: حفظ الممتلكات من إتلافها بالسرف.	١٧٥
الكلية الخلقية الثالثة: حفظ الممتلكات من إتلافها بالعبث والتعدي	١٧٦
الكلية الخلقية الرابعة: الحفظ من التلوث	١٧٧
رابعًا: القيم الأخلاقية المعنية بصلاح إدارة الرّاعي للكيان	**١٧٩**
الكلية الخلقية الأولى: التمكين	١٨٠
الكلية الخلقية الثانية: التوزيع العادل	١٨٢
الكلية الثالثة: الإحسان	١٨٢
الكلية الخلقية الرابعة: النصرة	١٨٣

صلاح الأفراد، وصلاح البناء المجتمعي	١٨٩
صلاح المجتمع وحفظه بصلاح الكيانات	١٩٩
العبودية مفهوم أشمل من المؤسسية	٢٠٧
الأصول المعرفية للعلاقات المجتمعية	٢١٩
الثمار المرجوة من شيوع مكارم الأخلاق	٢٢٠
الفارق بين المصفوفات القيمية والأخلاقية الإسلامية وغيرها من المصفوفات	٢٢١
المراجع والمصادر	٢٢٣
الفهرس	٢٢٩

هذا الكتاب:

• يتناول القضية المجتمعية، وكيفية إصلاح المجتمعات، والمنهج في ذلك ففيه محاولة رسم طريق متكامل العناصر، يبتدئ بتأصيل مراد الله عزّ وجلّ، وينتهي بأدبيات التطبيق.

• معرفة المطالب الشرعية التي تُبيِّن الغاية من خلق البشر، والحكمة من تكليفهم في هذه الحياة، ومسؤولية الفرد الشرعية تجاه إخوانه ومجتمعه.

• بيان أهمية السنن الإلهية لتغيير المجتمعات، والتأكيد على ضرورة إبراز القيم في الإصلاح، وتصنيف هذه القيم في مصفوفات كلية لتشمل كافة المجالات في الواقع.